جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

الآلهة المدعاة في القرآن الكريم

" دراسة بلاغية "

الدكتور
أبو زيد محمد علي أحمد شومان
أستاذ البلاغة والنقد المساعد في
كلية اللغة العربية بأسيوط

العدد الخامس عشر
للعام ١٤٣٢هـ / ٢٠١١م
الجزء الرابع

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .

وبعد ،،،

فقد سجل القرآن الكريم تاريخ البشرية الطويل ، وأشار إلى كثير من عاداتهم وعباداتهم بأسلوب معجز دقيق ، ومن بين هذه العادات السيئة التي سجلها وأبطلها وسفهها ووبخ أهلها عليها ، عبادة غير الله تعالى ، واتخاذ الأنداد من دونه تعالى ، وقد اتخذت عبادة غير الله تعالى صورا متعددة ، وألواناً متمايزة ــ ولكنها تلتقي حول هدف واحد ، وهو الكفر بالله تعالى وإشراك غيره معه في العبادة والتأليه ــ كعبادة الأصنام ، وعبادة الجن ، وبعض اليهود اتخذت عزيراً ابناً لله تعالى كما عُبدت الكواكب والعجل إلى غير ذلك من الآلهة المزعومة ، والأرباب المكذوبة ، التي عنَّ لعابديها أن يعبدوها ويتقربوا إليها ظنا منهم أنها تنفع وتضر ، وتنصر وتخذل ، وتعز وتذل ، وتجيب من دعاها.

وقد أخذت هذه الآلهة المدعاة حيزا كبيراً في كتاب الله تعالى فقد ذُكرت أسماؤها كاللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى وغير ذلك ، وأُكثر من وصفها فهي التي لا تسمع ولا تبصر ، ولا تضر ولا تنفع ، ولا تنصر نفسها فضلا عن نصرة عابديها ... ازدراءً وتسفيهًا لها ، وحطا من منزلتها ، وردًا على عابديها ، وتقريعًا لهم على عبادتها ، فليس في ذكرها شرف لها ، ولا إعلاء ، من قدرها ، وإنما هذا أشبه بالمجرم التافه الذي لا يذكر على صفحات الجرائد والإعلام إلا لأنه قاتل أو خائن أو مرتكب جرماً ؛ وفي هذا خطاب للعقول ، لإعادة

النظر في المفاهيم الخاطئة ، والموروثات المغلوطة حتى يستقل الإنسان في فكره فيتبع الرأي القويم ويعرض عن ساقطه ومعوجه .

وقد رسم القرآن الكريم لهذه الآلهة صوراً غاية في القبح ومشاهد في نهاية العجز والضعف تمثل واقعها المُذْرِي ، وضعفها وعجزها اللامتناهي ، وتجعل من يتأملها يرجع عن غيه ويثوب إلى رشده .

وقد جاءت خطة البحث على النحو التالي :

بعد جمع الآيات القرآنية الخاصة بالحديث عن الآلهة المدعاة تطلب الأمر تقسيم البحث ثلاثة مباحث على النحو التالي :

المبحث الأول : الآلهة المدعاة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم.

المبحث الثاني : التعبير عن هذه الآلهة بضمير العقلاء.

المبحث الثالث : الأمثال المضروبة في القرآن الكريم لهذه الآلهة.

ومن الله استمد العون وأستلهم التوفيق ، وهو المستعان وعليه التكلان.

المبحث الأول

الآلهة المدعاة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم

بعد الجمع والاستقراء للآلهة المدعاة في القرآن الكريم وقفت على ثمانية أنواع تقريباً كان أشهرها **عبادة الأصنام** وهي عبادة قديمة ، وكل رسول جاء ليحاربها ، ويدعو إلى توحيد الله تعالى ، وهذه العبادة ممتدة امتداد الزمن ، سارية في بعض النفوس سريان النار في الهشيم ، وقد أشار القرآن إليها في قوله تعالى : ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾[١].

قال ابن جرير الطبري ــ رحمه الله ــ : " فمعنى الآية : وأمرنا إبراهيم وإسماعيل بتطهير بيتي للطائفين ، والتطهير الذي أمرهما به في البيت هو تطهيره من الأصنام وعبادة الأوثان فيه ومن الشرك بالله "[٢] ثم أورد سؤالاً قال فيه : فإن قيل فهل كان قبل بناء إبراهيم عند البيت شيء من ذلك الذي أمر بتطهيره منه ؟ وأجاب بوجهين أحدهما : أنه أمرهما بتطهيره مما كان يعبد عنده في زمان قوم نوح من الأصنام والأوثان ، ليكون ذلك سنة لمن بعدهما ، إذ كان الله تعالى قد جعل إبراهيم إماما يقتدى به ، الثاني : أنه أمرهما أن يخلصا في بنائه لله وحده لا شريك له فيبنياه مطهراً من الشرك بي والريب[٣].

---

(١) البقرة ١٢٥.
(٢) جامع البيان للطبري ٦٢٥/١ ت هاني الحاج وآخرون ــ المكتبة التوفيقية ٢٠٠٤م .
(٣) السابق ٦٢٥/١ .

والوجهان لا خلاف بينهما إلا من حيث اللفظ ، فتطهير البيت من الأصنام إخلاص لله وحده ، والإخلاص في بناء البيت يوجب تطهيره مما ينافي هذا الإخلاص كالأصنام وغيرها .

وقد ذكر القرآن الكريم بعض الأصنام التي كان يعبدها قوم نوح ــ عليه السلام ــ في قوله تعالى : ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً * وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً * وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدًّا وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً ﴾(١).

وقد انتقلت هذه الأصنام عند قوم نوح إلى العرب فكان " ود " لكلب بدومة الجندل، و"سواع" لهمدان ، و"يغوث" لمذحج ، و"يعوق" لمراد، و"نسر" لحمير، ولذلك سمت العرب بعبد ود وعبديغوث...(٢).

ــ كما ذكر القرآن من أسماء الأصنام اللات والعزى ومناة في معرض تقريعه للمشركين في عبادتهم لها ، واتخاذهم لها البيوت مضاهاة للكعبة التي بناها إبراهيم ــ عليه السلام ــ في قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى * تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى * إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم ... ﴾ (٣).

بهذه الاستفهامات " أفرأيتم اللات والعزى " ، "ألكم الذكر وله الأنثى" التي تحمل معنى الإنكار والتوبيخ والاستهزاء ووصف القسمة

---

(١) نوح الآيات ٢١ ــ ٢٤ .
(٢) راجع ابن كثير ٤٢٧/٤ ــ دار المنار ــ من دون ، والكشاف للزمخشري ١٦٤/٤ ، دار الفكر ــ بدون ، وكتاب الأصنام للكلبي ص٩ وما بعدها ت الأستاذ / أحمد زكي باشا ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب سنة ١٣٤٣هـ / ١٩٢٤م ط٤ سنة ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م ، مطبعة دار الكتب المصرية .
(٣) النجم الآيات ١٩ ــ ٢٣ .

بأنها " ضيزى " ثم قصر أسماء الأصنام على تسميتهم لها هم وآباؤهم والنص على ذلك " أنتم وآبائكم" دون الاعتماد على دليل أو توجيه رسول ولذا جاء قوله " ما أنزل الله بها من سلطان" ليؤكد سفههم " وأن هذه الأصنام المذكورات أي من حيث وصفها بالألوهية ليس لها من الألوهية التي أثبتوها لها إلا لفظها وأما معناها فهي عَرِيَّةٌ عنه لأنها من أذل المخلوقات"(١).

ثم قصر اتباعهم لهذه الأصنام وعبادتهم إياها على الظن وهوى النفس مما زين لهم الشيطان أنها تشفع لهم عند الله ، ثم يذيل الآية بالتأكيد على ضلالهم حيث عبدوا هذه الأصنام مع مجيء الهدي لهم من ربهم ، وهذا غاية في الضلال والجحود " ولقد جاءهم من ربهم الهدى " فالجملة تأكيد لبطلان اتباع الظن وهوى النفس وزيادة تقبيح لحالهم فإن اتباعها من أي شخص كان قبيح ولمن هداه الله بإرسال الرسل وإنزال الكتب أقبح (٢).

يقول ابن كثير : " وكانت اللات صخرة بيضاء منقوشة عليها بيت بالطائف له أستار وسدنة ، وحوله فناء معظَّم عند أهل الطائف ... وكذا العُزَّى كانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة ، وهي بين مكة والطائف، وكانت قريش يعظمونها... وأما مناة: فكانت بالمُشَلَّل عند قديد بين مكة والطائف ، وكانت خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتها يعظمونها، ويهلون منها للحج إلى الكعبة"(٣).

وليست هذه الأصنام المذكورة في القرآن هي وحدها التي كانت تعبد وتعظم بل غيرها كثير ، وقد ذكر الكلبي في كتابه الأصنام

---

(١) حاشية الجمل ٤ / ٢٣٠ ، الحلبي ، من دون.
(٢) تفسير أبي السعود ٥/٢٢٤ ت عبد القادر أحمد عطا ــ مكتبة الرياض الحديثة ــ من دون.
(٣) انظر ابن كثير ٤/٢٥٤ والأصنام للكلبي ص١٣ وما بعدها .

كثيراً من أسمائها ، وخص لكل قبيلة صنما، بل كان الواحد يجعل لنفسه صنما يعبده ويتقرب إليه[١]، وأُفردت هذه بالذكر لشهرتها عن غيرها يقول ابن كثير : " وقد كانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخر تعظمها العرب كتعظيم الكعبة غير هذه الثلاثة التي نص عليها في كتابه العزيز، وإنما أفردت هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها"[٢].

وقد كُسِّر جميع الأصنام التي حول الكعبة بعد فتح مكة يقول الكلبي : "فلما ظهر رسول الله ــ ﷺ ــ يوم فتح مكة ، دخل المسجد الحرام والأصنام منصوبة حول الكعبة فجعل يطعن بسية[٣] قوسه في عيونها ووجوهها ويقول : ﴿جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا﴾[٤] ثم أمر بها فكفئت على وجوهها ثم أخرجت من المسجد فحرقت ... " [٥].

---

(١) راجع الأصنام للكلبي ص٩ وما بعدها .
(٢) ابن كثير ٤ / ٢٥٤ .
(٣) سية القوس : طرف قابلها وقيل رأسها وقيل ما أعوج من رأسها .. لسان العرب لابن منظور مادة "سيا " ٢١٧٣/٦ ــ طبعة دار المعارف بدون .
(٤) الإسراء ٨١ .
(٥) الأصنام للكلبي ص٣١ .

لفظ الأصنام والأوثان والتماثيل والآلهة في القرآن الكريم:

وقد أُطلق على الآلهة المدعاة كثير من الأسماء التي تدل على حقارتها وتسفيهها مثل الأصنام والأوثان والتماثيل والآلهة .

أولاً : لفظ الأصنام :

وقد ورد لفظ الأصنام في القرآن الكريم خمس مرات[١] على النحو التالي:

١ ــ في قصة سيدنا إبراهيم في سورة إبراهيم في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا البَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾الآيـــة ٣٥.

٢ ــ في قصة سيدنا إبراهيم في سورة الأنعام في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ الآية٧٤ .

٣ ــ في قصة سيدنا إبراهيم في سورة الشعراء في قوله تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴾ الآيات ٦٩ ــ ٧١ .

٤ ــ في قصة سيدنا إبراهيم في سورة الأنبياء في قوله تعالى : ﴿ وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾الآية٥٧ .

٥ ــ في قصة سيدنا موسى عليه السلام في سورة الأعراف في قوله تعالى : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ البَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى

---

(١) راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقي ص٥٢٧ ، ط ثانية ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م ــ دار الحديث القاهرة .

أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ الآية ١٣٨ .

والمواطن الخمسة حديث عن الأصنام يمتلئ بالتهكم والسخرية والإنكار على عبادتها والاستهزاء من عابديها ووسيلة ذلك الأساليب المركبة والألفاظ المفردة والأدوات والمعاني الصريحة والكنائية .

ففي الموطن الأول لم يكن الحديث منصبا على الأصنام وإنما كان ضمن دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام فبعد أن طلب أمن مكة أتبعه بأن يجنِّبه عبادة الأصنام فهي سبب إضلال كثير من الناس وهو قد جاء بدعوة التوحيد التي تنافي عبادة غيره تعالى .

وفي الموطن الثاني : " وإذ قال إبراهيم لأبيه آزرا تتخذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين " ينكر سيدنا إبراهيم على والده اتخاذ الأصنام آلهة ، ويقرر ضلاله وضلال قومه بسبب هذا الاتخاذ ، فالاستفهام في قوله : "أتتخذ" للإنكار والتوبيخ وتتخذ مضارع اتخذ وهو افتعال من الأخذ فصيغة الافتعال فيه دالة على التكلف للمبالغة وتحصيل الفعل[١] ولذا يقول الشيخ الجمل[٢] "أتتخذ" أي: أتكلف نفسك إلى خلاف ما تدعو إليه الفطرة الأولى بأن تجعل أصناماً آلهة تعبدها وتخضع لها ولا نفع فيها ولا ضر " وفي ذلك تعريض بسخافة عقله أن يجعل إلهه شيئا هو صنعه[٣] وفي ذكره

---

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ، مجلد ٣ جزء ٣١٢/٧ دار سحنون للنشر والتوزيع ــ تونس ١٩٩٧م .
(٢) حاشية الجمل ٤٨/٢ .
(٣) التحرير والتنوير مجلد ٣ جزء ٣١٣/٧ .

"أصناما آلهة " بالجمع تقبيح عظيم لفعلهم واتخاذهم جمعا آلهة " [١] ومحل الإنكار هو المفعول " أصناما " ويكون قوله "آلهة" حالاً من "أصناما" [٢] وقد تضمن ما حكي من كلام إبراهيم لأبيه أنه أنكر عليه شيئين أحدهما: جعله الصورة آلهة مع أنها ظاهرة الانحطاط عن صفة الآلهية وثانيهما : تعدد الآلهة ولذلك جعل مفعولا تتخذ جمعين، ولم يقل: أتتخذ الصنم" [٣].

وجملة " إني أراك وقومك في ضلال مبين " مبينة للإنكار في جملة "أتتخذ أصناما آلهة " وأكد الإخبار بحرف التأكيد لما يتضمنه ذلك الإخبار من كون ضلالهم بينا ... ولما أنكر على أبيه أخبر أنه وقومه في ضلال ، وجعلهم مظروفين للضلال أبلغ من وصفهم بالضلال كأن الضلال صار ظرفا لهم . [٤]

وكل هذا يناسب حال الأصنام المهين وفكر عابديها السقيم " ويدل على أن سيدنا إبراهيم على هداية وعصمة من سبق ما يوهم ظاهر قوله " هذا ربي " من نسبة ذلك إليه على أنه أخبر عن نفسه ، وإنما ذلك على سبيل التنزُّل مع الخصم وتقرير ما يبني عليه من استحالة أن يكون متصفا بصفات الحدوث " [٥].

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٥٦٢/٤ بعناية صدقي محمد جميل ، دار الفكر ، ط أولى ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .

(٢) وهذا وجه من الوجوه الإعرابية ، وهو يخالف كون صاحب الحال معرفة ، وجوزوا أن تكون " آلهة " بدلاً من " أصناماً " وهذا الذي يناسب تنكير "أصناماً"، التحرير والتنوير مجلد٣، ج٣١٣/٧ .

(٣) المرجع السابق ، مجلد ٣ جزء ٣١٣/٧ .

(٤) راجع التحرير والتنوير مجلد ٣ جزء ٧ / ٣١٢ ، والبحر المحيط لأبي حيان ٥٦٢/٤ .

(٥) مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٦ / ٥٦٢ ط . أولى ١٤١٣هـ/١٩٩٣م . دار الغد العربي .

وفي الموطــن الثالث : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْــمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * قَــالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ * فَــإِنَّهُمْ عَــدُوٌّ لِّــي إِلاَّ رَبَّ العَالَمِينَ﴾ **الشعراء . الآيات ٦٩ ــ ٧٧ .**

وهذه الآيات عرضت لها في دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام في القرآن[١] وحتى لا أكرر ما قلته هناك فســأركز علــى عناصــر الاستهزاء والسخرية في أساليب الآيات ، ومن ذلك : الاستفهام "مــا تعبدون" الذي يحمل معنى التحقير والتقرير ، فقد كان سيدنا إبراهيم عليه السلام يعلم أنهم عبدة أصنام ، ولكن سألهم ليريهم أن ما كانوا يعبدونه ليس مستحقاً للعبادة [٢].

إثبات عدم السمع في حال الدعاء وعدم النفع وعدم الضــر " هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون " والاستفهام فيــه معنى النفي والتوبيخ ، فإذا كانت الأصنام لا تسمع وقت الدعاء الذي هو أوجب وأدعى للسمع فمن باب أولى لا تسمع في غيره " وقد جاء الفعل مضارعا مع إيقاعه في "إذ" على حكاية الحال الماضية ومعناه : استحضروا الأحوال الماضية التي كنتم تدعونها فيها وقولــوا : هــل سمعوا أو أسمعوا قط ، وهذا أبلغ في التبكيت [٣].

---

(١) وهو بحث منشور في مجلة كلية اللغة العربيــة بأســيوط العــدد السادس والعشرين ١٤٢٨هــ / ٢٠٠٧م .

(٢) تفسير القرطبي ٧ / ٤٨٨ تحقيق : إبراهيم محمد الجمــل ، دار القلم للتراث ، من دون.

(٣) الكشاف للزمخشري ٣ / ١١٦ ، وحاشية الجمل ٣ / ٢٨٢ .

وفي جوابهم " قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون " اعتراف منهم بأنها بمعزل عما ذكر من السمع والمنفعة والمضرة بالمرة ، واضطروا إلى إظهار ألا سند لهم سوى التقليد[١].

الاستفهام الاستهزائي بعبدة الأصنام " أفرأيتم ما كنتم تعبدون " يتضمن بطلان آلهتهم وبطلان عبادتها وأنها ضلال قديم لا فائدة من قدمه إلا ظهور بطلانه لأن المعنى : أعلمتم أي شيء عبدتم أنتم ومن قبلكم وأنها لا تقدر على ضر ونفع ، وعطف " آباؤكم " على " أنتم " في قوله " أنتم وآباؤكم الأقدمون" لزيادة إظهار قلة اكتراثه بتلك الأصنام مع العلم بأن الأقدمين عبدوها فتضمن ذلك إبطال شبهتهم في استحقاقها للعبادة[٢] ووصف الآباء بالأقدمين إيغال في قلة الاكتراث بتقليدهم لأن عُرْف الأمم أن الآباء كلما تقادم عهدهم كان تقليديهم آكد[٣].

أثبت سيدنا إبراهيم عداوته للأصنام " فإنهم عدو لي إلا رب العالمين " وهو يعرِّض بهم ، وقد يبلغ التعريض للمنصوح مالا يبلغه التصريح ، لأنه يتأمل فيه فربما قاده التأمل إلى التقبل ، ولو أنه قال : فإنه عدو لكم لم يكن بتلك المثابة[٤] وقد جعله بعضهم[٥] من قبيل التشبيه البليغ أي هم كالعدو لي في أني أبغضهم وأضرهم ، وهذا التشبيه المشبه أقوى في وجه الشبه في الواقع من المشبه به لأن الأصنام أكثر ضرراً وأشد فتكا وإهلاكاً لعابديها من العدو الذي هو

---

(١) حاشية الجمل ٣ / ٢٨٢ .
(٢) التحرير والتنوير مجلد ٨ جزء ١٩ / ١٤١ .
(٣) انظر السابق .
(٤) الكشاف للزمخشري ٣ / ١١٦ .
(٥) التحرير والتنوير مجلد ٨ جزء ١٩ / ١٤٠ وحاشية الشهاب الخفاجي ١٨٩/٧ ضبط السيخ عبدالرزاق المهدي ، ط أولى ١٤١٧هـ/١٩٩٧م دار الكتب العلمية لبنان.

المشبه به وإن كان المشبه به أشهر إذ وقر في العقول وركز في الأفئدة أن العدو هو مصدر الهلاك ومنبع الضرر .

وفي إبراز عداوته عليه السلام للأصنام التي اتخذوها آلهة وعبدوها من دون الله تسفيه لعقولهم واستهزاء بهم ، إذ كان حريا بهم أن يتابعوه ويعادوا من عاداه ويوالوا من والاه ، لأنه نبي مرسل وعداوته للأصنام دلالة قاطعة على عجزها وضعفها وأنها لا تستحق العبادة ، وفيه : أنه ينصحهم بما ينصح به نفسه، وهذا أدعى لإجابته وقبوله .

وقد نزَّل الأصنام منزلة العقلاء حيث وصفها بالعداوة ، وقال "فإنهم" ولم يقل فإنها ، وفي ذلك إشارة إلى أنها لو بلغت أعلى ما تصل إليه فهي أن تكون عاقلة ، ومع ذلك فلن تستحق العبادة والتأليه ، وفي ذلك إشارة إلى تسخيفها والاستهزاء بها وبهم .

وفي الموطن الرابع : الآية ضمن مشهد متكامل يبدأ من قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ * قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ * وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلاَّ كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلاَيَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ الأنبياء : الآيات ٥١ ــ ٦٧ .

وهذا المشهد مليء بالاستهزاء والتوبيخ والإنكار والتهكم بهم وبأصنامهم التي عبدوها ، فاستفهامات سيدنا إبراهيم التوبيخية والتهكمية تتوالي على مسامعهم حتى تنبههم من غفلتهم وتوقظهم من ضلالهم علَّهم يثوبون إلى رشدهم ويرجعون إلى الحق وعبادة الإله الواحد ، وقد ذكرت الآلهة المدعاة في هذا المشهد بلفظ التماثيل وهذه اللفظة ثاني مرة تذكر في القرآن الكريم على أساس أن سورة الأنبياء نزلت بعد سورة سبأ(١) ، وسيدنا إبراهيم لم يترك وسيلة إلا استعملها في تحقير هذه الآلهة المدعاة فهو يسميها أصناما وتماثيل وإفكا وآلهة من دون الله .

وأولى هذه العناصر في هذا المشهد هذا الاستفهام : " ما هذه التماثيل " وهو تجاهل لهم وتغاب ليحقر آلهتهم ويصغر شأنها مع علمه بتعظيمهم وإجلالهم لها (٢) ، وهذا التحقير ناتج عن سؤالهم عن أصنامهم بـ" ما " التي يطلب بها بيان الحقيقة أو شرح الاسم ، كأنه لا يعرف أنها ماذا مع علمه بأنها حجٌر وشجرٌ وذهبٌ (٣) ومن الإشارة إليها بما يشار به للقريب " هذه " ومن تسميتها تماثيل وهي صورة بلا روح مصنوعة فكيف تعبد (٤) وهذا الاستفهام من تجاهل العارف استعمله تمهيدا لتخطئتهم بعد أن يسمع جوابهم فهم يظنونه سائلا مستعلما ولذلك أجابوا سؤاله بقولهم : " وجدنا آباءنا لها

---

(١) راجع الإتقان للسيوطي ٥٣/١ ت : أحمد بن على ـ دار الحديث ـ القاهرة ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م .
(٢) الكشاف للزمخشري ٢ / ٥٧٥ .
(٣) حاشية الجمل ٣ / ١٣٢ .
(٤) حاشية الشهاب الخفاجي ٤٤٨/٦ والتحرير والتنوير م٧ جـ١٧/٩٤.

عابدين " [١] وكل هذا يدل على انحطاطها عن رتبة الألوهية ، ويسلب عنها الاستقلال الذاتي لها ، والتعبير بضمير " أنتم " في قوله : " أنتم لها عاكفون " للاستهانة بهم ، وتوقيف على سوء صنيعهم[٢] ، وهذه الجملة فيها معنى الدوام واللزوم من وجهين من حيث اسميتها ودلالة " عاكفون " على الإقبال على الشيء وملازمته على سبيل التعظيم[٣] وهذه الملازمة والتعظيم لحجر لا ينفع ولا يضر يدل على سفه عقولهم، وقلة تدبرهم ، حتى صاروا إلى مثل ذلك الغباوة ، وفي إجابتهم : " قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين " إظهار للعجز عن الإتيان بحجة وسبب ، فلم يكن لهم جواب إلا التقليد [٤] ، وقوله : " لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين " وصف لهم ولآبائهم بالضلال ووصف الضلال بأنه " مبين " واستعمال " في " التي تفيد الظرفية ، للدلالة على تمكنهم في ضلالهم ، وأنه ضلال قديم موروث فهو أبلغ من "ضالين" وأراد أن المقلِّدين والمقلَّدين جميعا منخرطون في سلك ضلال لا يخفى على من به أدنى مسكة لاستناد الفريقين إلى غير دليل بل إلى هوى متبع وشيطان مطاع. [٥]

والضمير في " فطرهن " للسموات والأرض أو التماثيل ، وكونه للتماثيل أدخل في تضليلهم وأثبت في الاحتجاج عليهم .

وقوله : " وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين " تفوح منه رائحة العجز والضعف والخذلان ، فالأصنام تحتاج لحارس

---

(١) حاشية الشهاب الخفاجي ٤٤٨/٦ والتحرير والتنوير م٧ جـ١٧/٩٤ .
(٢) البحر المحيط لأبي حيان ٧ / ٤٤٢ .
(٣) المفردات للراغب ص٣٤٦ مراجعة : وائل أحمد عبدالرحمن ، المكتبة التوفيقية ، من دون.
(٤) حاشية الجمل ٣ / ١٣٢ .
(٥) الكشاف للزمخشري ٢ / ٥٧٥ .

يحرسها وحام يحميها، وبعد ذهاب الحراسة والحماية لا تستطيع أن تدفع عن نفسها، ولذلك أقسم على تحطيمها "بعد أن تولوا مدبرين".

وفي إضافة ضمير " كم " إلى الأصنام " أصنامكم " واختيار كاف الخطاب وما فيه من المواجهة الصارخة انتقاص من عقولهم وتسفيه لأحلامهم إذ كيف يحدث منهم هذا الأمر الشنيع .

وفي قوله " فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون " التعبير عن الأصنام بقوله " جذاذا " والجذ : كسر الشيء وتفتيته ويقال لحجارة الذهب المكسورة ولفتات الذهب جذاذ[١] فيه استهزاء وتهكم لأنه لا يجذ ويفتت إلا الشيء التافه الضعيف الذي لا يستطيع دفعا .

والضمير في قوله " إليه " يعود على إبراهيم عليه السلام وإنما استبقى الكبير لأنه غلب في ظنه أنهم لا يرجعون إلا إليه لما تسامعوه من إنكاره لدينهم وسبه لآلهتهم فيبكتهم بما أجاب به من قوله " بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ..." أو يعود إلى " كبيرهم " أي : لعلهم يرجعون إليه كما يرجع إلى العالم في حل المشكلات فيقولون له ما لهؤلاء مكسورة ومالك صحيحا والفأس على عاتقك. قال ذلك بناء على ظنه بهم لما جرب وذاق من مكابرتهم لعقولهم واعتقادهم في آلهتهم وتعظيمهم لها أو قاله مع علمه أنهم لا يرجعون إلا إليه استهزاءً بهم واستجهالا [٢].

وسواء أكان الضمير راجعًا إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام أم إلى الصنم فإن الاستهزاء والسخرية والتبكيت متحقق في الأمرين.

---

(١) المفردات للراغب الأصفهاني ص٩٧ .
(٢) ينظر الكشاف للزمخشري ٢/ ٥٧٦، وحاشية الجمل ١٣٣/٣ .

والاستفهام في قوله: "من فعل هذا بآلهتنا..." إنكار وتوبيخ وتشنيع والإشارة إلى التكسير ، وإنما عبر عنها بما ذكر ولم يشيروا إليها بهؤلاء وهي بين أيديهم مبالغة في التشنيع[١] والإنكار والتوبيخ والتشنيع منهم على من كسر هذه الأصنام ، وقد جعله أبو حيان : استفهام بحث وإنكار[٢] ولعل عبارة "استفهام بحث" غريبة على معاني الاستفهام المجازية لكن أبا حيان نظر إلى المعنى فأضاف كلمة " بحث " إلى الإنكار فهم يبحثون ويسألون القاصي والداني عن الذي أحدث هذا الكسر والتحطيم وكان بعض الناس سمع إبراهيم وهو يقول : " وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين " فأخبر غيره وانتشر ذلك في جماعة فلذلك قال: "سمعنا فتى يذكرهم " [٣] فأمروا بإحضاره " قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون " وتوجهوا إليه بالسؤال " أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم " وكان السؤال عن الفاعل " أأنت " لأن الشك فيه والبحث عنه ، وطلبوا منه الاعتراف بذلك ليقدموا على إيذائه فظهر منه ما انقلب الأمر عليهم حتى تمنوا الخلاص منه وبهتهم بقوله " بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون "[٤] وهذا القول يحمل قدراً كبيرا من الاستهزاء والتهكم والسخرية بهم وبأصنامهم " فلم يقصد سيدنا إبراهيم أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضي يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم ، وهذا كما لو قال لك صاحبك وقد كتبت كتابا بخط رشيق وأنت شهير بحسن الخط أأنت كتبت هذا ؟ وصاحبك أمي لا يحسن الخط ولا يقدر إلا على خرمشة فاسدة فقلت له : بل كتبته أنت ، كان قصدك بهذا الجواب :

---

(١) حاشية الجمل ٣ / ١٣٣ .
(٢) البحر المحيط لأبي حيان ٧ / ٤٤٢ .
(٣) مفاتيح الغيب للفخر الرازي ١١ / ١٤٥ .
(٤) السابق ١١ / ١٤٨ .

تقريره لك مع الاستهزاء به لا نفيه عنك وإثباته للأمي المخـرمش ، لأن إثباته والأمر دائر بينكما للعاجز منكما استهزاء وإثبات للقادر"[١] ولأهمية كلام الزمخشري هذا وإصابته كبد الحقيقة وجـدنا العلمـاء ينقلونه كما هو لا يزيدون عليه[٢].

وجملة " إن كانوا ينطقون " تضفي مزيدا مـن الاسـتهزاء والتبكيت بهذه الآلهة البكماء " وإنما قال " إن كانوا ينطقـون " ولـم يقل يسمعون أو يعقلون مع أن السؤال موقوف على السمع والعقـل أيضا لما أن نتيجة السؤال الجواب وأن عـدم نطقهـم أظهـر فـي تبكيتهم"[٣].

وهذه الجملة " فاسألوهم ... " زلزلـت الأرض مـن تحـت أقدامهم وحطمت مشاعرهم وفجأتهم بالحقيقة التي لا مراء فيها وهي أن هذه الأصنام لا تنطق وكادوا يرجعون إلـى الحـق والصـواب " فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون " حين عبـدتم مـا لا ينطق أو حين أبهتهم إبراهيم والفأس في عنق الكبير" [٤].

وجملة " ثم نكسوا على رءوسهم " ترسم ملامح الخزي وقد علت وجوههم فطأطؤوا رءوسهم ونكسوها خجلا وانكسارا " وهـي استعارة للذي يرتطم في غيه كأنه منكوس على رأسه وهـي أقـبح هيئة للإنسان ، فكأن عقله منكوس أي مقلوب لانقلاب شكله ، وجعل أعلاه أسفله ، فرجوعهم إلى أنفسهم كناية عـن اسـتقامة فكـرهم ونكسهم كناية عن مجادلتهم ومكابرتهم ، ويحتمل أن يكون "نكسـوا

---

(١) الكشاف للزمخشري ٢ / ٥٧٧ .
(٢) حاشية الجمل ٣ / ١٣٤ ، والبحر المحيط لأبي حيـان ٤٤٩/٧ ، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب الخفاجي عليه ٤٥٢/٦ .
(٣) حاشية الجمل ٣ / ١٣٤ .
(٤) البحر المحيط لأبي حيان ٧ / ٤٤٩ .

على رءوسهم " كناية عن طأطأة رءوسهم وتنكبها إلى الأرض على سبيل الخجل والانكسار مما بهتهم به إبراهيم من قول الحق ودمغهم به فلم يطيقوا جوابا إلا ما هو حجة عليهم [١].

وقد وافقوا إبراهيم عندما قال لهم متهكما ساخرا : "فاسألوهم إن كانوا ينطقون " وصرحوا بذلك وكأنهم مستغربون السؤال ومستبعدون وقوعه بقولهم : "لقد علمت ما هؤلاء ينطقون " وهذه الموافقة والاعتراف جعلت سيدنا إبراهيم يقرعهم ويوبخهم على عبادة تماثيل لا تنفع ولا تضر " قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم " وهو استفهام إنكار منه عليه السلام على عبادتهم أصناما تحققت فيها ثلاث صفات تمثل النقص والحاجة " من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم " وإذا كان الإله لا ينفع ولا يضر استحق التأفف والتضجر منه ومن عابديه " أف لكم " و" أف " صوت إذا صُوِّتَ به عُلم أن صاحبه يتضجر ، وقد أضجره ما رأى من ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم وبعد وضوح الحق وزهوق الباطل فتأفف بهم"[٢].

ومجيء اللام "لكم" لبيان المتأفف به أي لكم ولآلهتكم هذا التأفف ، ثم أنكر عليهم عدم استعمال العقل بقوله " أفلا تعقلون " أي قبح ما أنتم عليه وهو استفهام توبيخ وإنكار " [٣].

والموطن الخامس في قوله تعالى : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٧ / ٤٤٩ ، والكشاف للزمخشري ٢/٥٧٧ .
(٢) الكشاف للزمخشري ٢ / ٥٧٦ .
(٣) البحر المحيط لأبي حيان ٧ / ٤٥٠ .

آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ الأعراف : الآية ١٣٨.

والقوم هم الكنعانيون ويقال لهم عند متأخري العرب العمالقة الذين أمر موسى بقتالهم واختير طريق التنكير في أصنام ووصفه بأنها " لهم " أي القوم دون طريق الإضافة " أصنامهم " ليتوسل بالتنكير إلى إرادة تحقير الأصنام وأنها مجهولة لأن التنكير يستلزم خفاء المعرفة[١] وإنما وصفت الأصنام بأنها "لهم" ولم يقتصر على قوله " أصنام " زيادة تشنيع بهم وتنبيه على جهلهم وغوايتهم في أنهم يعبدون ما هو ملك لهم فيجعلون مملوكهم إلههم [٢].

وأرادوا بالتشبيه ــ اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ــ حضَّ موسى على إجابة سؤالهم ، وابتهاجهم بحال القوم الذين حلُّوا بين ظهرانيهم ، وكفى بالأمة خسة عقول أن تعد القبيح حسنا ، وأن تتخذ المظاهر المزيَّنة قدوة لها ، وأن تنخلع عن كمالها في اتباع نقائص غيرها[٣].

وقد كان جواب سيدنا موسى عليهم بعنف وغلظة " إنكم قوم تجهلون " لأن ذلك هو المناسب لحالهم فقد وصفهم بالجهل والمراد جهلهم بمفاسد عبادة الأصنام ، وكان وصف موسى إياهم بالجهالة مؤكدا لما دلت عليه الجملة الاسمية من كون الجهالة صفة ثابتة فيهم وراسخة في نفوسهم وفي الإتيان بلفظ "قوم" وجعل ما هو مقصود بالإخبار وصفا لقوم ــ تجهلون ــ تنبيه على أن وصفهم بالجهالة كالمتحقق المعلوم الداخل في تقويم قوميتهم ، وفي الحكم

---

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ، مجلد ٤ جزء ٩ / ٨٠ .
(٢) المصدر السابق ص.../٨٠ .
(٣) المصدر السابق ص.../٨١ .

بالجهالة على القوم كلهم للتعجب من حال جهالتهم وعمومها فيهم بحيث لا يوجد فيهم من يشذ عن هذا الوصف مع كثرتهم ، ولأجل هذه الغاية أكد الحكم بأن لأن شأنه أن يتردد في ثبوته السامع(١)، ولم يقل تجهلون ماذا ؟ ليكون في إطلاق اللفظ ما يعني الجهل الكامل الشامل ... والجهل من الجهالة ضد المعرفة ، والجهل من الحماقة ضد العقل فما ينبعث مثل هذا القول إلا من الجهالة والحمق إلي أبعد الحدود ، ثم ليشير إلى أن الانحراف عن التوحيد إلي الشرك إنما ينشأ من الجهل والحماقة ، وأن العلم والتعقل يقود كلاهما إلي الله الواحد، وأنه ما من علم ولا عقل يقود إلي غير هذا الطريق(٢).

وعلى هذا التخريج فالخبر من قبيل الخبر الطلبي أخذا من قوله: "ولأجل هذه الغرابة أكد الحكم بإن لأن شأنه أن يتردد في ثبوته السامع " لكن أبا حيان جعله إنكاريا ووجهه بقوله " وقول سيدنا موسى " إنكم قوم تجهلون " تعجب موسى عليه السلام من قولهم على إثر ما رأوا من الآيات العظيمة من إنجاء الله لهم من فرعون ، ووصفهم بالجهل المطلق وأكده بإن ، لأنه لا جهل أعظم من هذه المقالة ولا أشنع ، وأتي بلفظ " تجهلون " ولم يقل جهلتم إشعاراً بأن ذلك منهم كالطبع والغريزة لا ينتقلون عنه في ماض ولا مستقبل(٣).

والقول قول أبى حيان لأن الأسلوب مليء بأدوات التأكيد وليس مقتصرا على " إن " حتى يكون طلبيا ، من مثل إن واسمية الجملة

---

(١) التحرير والتنوير للطاهر عاشور مجلد ٤ جزء ٨٢/٩ وحاشية الشهاب الخفاجي ٣٥٨/٤ .

(٢) الظلال لسيد قطب ١٣٦٦/٣ ط . الخامسة والثلاثون ١٤٢٥هـ /٢٠٠٥م ــ دار الشروق.

(٣) البحر المحيط لأبي حيان ٥ / ١٥٨ وروح المعاني للألوسي ٢٢٤/٦ .

ووصفهم بالجهل واختيار تجهلون دون جهلتم للدلالة على أن الجهل فيهم كالطبع والغريزة لا ينفكون عنه في ماض ولا مستقبل كل ذلك يجعل الخبر إنكاريا ولذا يقول أبو حيان " لأنه لا جهل أعظم من هذه المقالة ولا أشنع" ويقول الزمخشري[١] "... فوصفهم بالجهل المطلق وأكده لأنه لا جهل أعظم مما رأى منهم ولا أشنع".

ويعلق صاحب الظلال على المشهد قائلاً : " إنها العدوى تصيب الأرواح كما تصيب الأجسام ! ولكنها لا تصيبها حتى يكون لديها الاستعداد والتهيؤ والقابلية ، وطبيعة بني إسرائيل ــ كما عرضها القرآن الكريم ــ طبيعة مخلخلة العزيمة ، ضعيفة الروح ، ما تكاد تهتدي حتى تضل ، وما تكاد ترتفع حتى تنحط، وما تكاد تمضي في الطريق المستقيم حتى ترتكس وتنتكس ، ذلك إلى غلظ في الكبد ، وتصلب عن الحق ، وقساوة في الحس والشعور وهاهم أولاء على طبيعتهم تلك هاهم أولاء ما يكادون يمرون بقوم يعكفون على أصنام لهم حتى ينسوا تعليم أكثر من عشرين عاما منذ أن جاءهم موسى ــ عليه السلام ــ بالتوحيد "[٢].

وتُختم الآية بهذا الوعيد الشديد والتهديد والتقريع : " إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون " والجملة بمعنى التعليل لمضمون جملة " إنكم قوم تجهلون " ولذلك فصلت عنها والإشارة بـ" هؤلاء " إلى العاكفين على عبادة الأصنام ، وقد عرف المسند إليه بالإشارة لتمييزهم بتلك الحالة التي هم متلبسون بها أكمل تمييز وللتنبيه على أنهم أحرياء بما يرد بعد اسم الإشارة من الأوصاف وهي كونهم متبراً أمرهم وباطلا عملهم ، وقدم المسند وهو " متبر " على المسند إليه وهو " ما هم فيه " ليفيد " تخصيصه

---

(١) الكشاف للزمخشري ٢ / ١١٠ .
(٢) الظلال لسيد قطب ٣ / ١٣٦٦ .

بالمسند إليه أي هم المعرضون للتبار وأنه لا يعدوهم البتة وأنه لهم ضربة لازب .... والتتبير مستعار هنا لفساد الحال فيبقى اسم المفعول على حقيقته في أنه وصف للموصوف به في زمن الحال ، ويجوز أن يكون التتبير مستعاراً لسوء العاقبة شبه حالهم المزخرف ظاهره بحال الشيء البهيج الآيل إلى الدمار والكسر فيكون اسم المفعول مجازا في الاستقبال، أي: صار إلى السوء"[١].

فانظر كم من عناصر الأداء جاء ليرسم مشهد الاستهزاء بهم والوعيد لهم والتنفير من عبادتهم والحط من منزلتها والإهانة بقدرها ، وما لم يذكر أكثر مما ذكر !! .

ثانياً : لفظ الأوثان :

كما ورد لفظ الأوثان في القرآن الكريم ثلاث مرات[٢] على النحو التالي :

١ ــ في سورة الحج في قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ الآية ٣٠ .

٢ ــ في سورة العنكبوت في قوله تعالى : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ آيتا ١٦ ، ١٧

---

(١) راجع : التحرير والتنوير مجلد ٤ جزء ٨٢/٩ ، والكشاف ١١٠/٢ ، والبحر المحيط لأبي حيان ١٥٨/٥ ، وحاشية الشهاب ٣٥٩/٤ وحاشية الشيخ زاده ٢٩٥/٢ .

(٢) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقي ص٩١٠ .

٣ ــ في سورة العنكبوت في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ القِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ الآية٢٥

ويلاحظ أن لفظ " الأوثان " جاء في المواطن الثلاثة مجموعا وفي ذلك : "إشارة إلى تفرق الهم بكثرة المعبود ، والكثرة يلزمها الفرقة ولا خير في الفرقة ومادة " وثن " بجميع تقاليبها واوية ويائية مهموزة تدور على الزيادة والكثرة ، ويلزمها الفرقة من اختلاف الكلمة فيلزمها حينئذ الرخاوة فيأتي العجز ... والمادة كلها دائرة على ما لا ينبغي لرتبة الإلهية من الكثرة والفرقة والرخاوة[١] كما أتى بصيغة الحصر في الموطن الثاني﴿ إنما تعبدون من دون الله أوثانا ﴾ وهو قصر قلب لسلب ما اعتقدوه فيها من الآلهية[٢] وفي الموطن الثالث : ﴿ وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا... ﴾ أي : ما اتخذتم أوثانا إلا لأجل مودة بعضكم بعضا ووجه الحصر : أنه لم تبق شبهة في عبادة الأوثان بعد مشاهدة دلالة صدق الرسول الذي جاء بإبطالها فتمحض أن يكون سبب بقائهم على عبادة الأوثان هو مودة بعضهم بعضا الداعية لإباية المخالفة [٣].

والآيات الثلاث تحمل قدراً كبيراً من عناصر الاستهزاء والتهكم والسخرية من الأصنام وعابديها مع النهي عن عبادتها لأنها لا تملك شيئاً من مقومات الله الحق ، وقد تآزرت عناصر الأداء على إظهار ذلك ففي آية الحج تجد الإخبار عمن يعظم حرمات الله بالأجر العظيم والثواب الجزيل في قوله : ﴿ ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ٥ / ٥٤٤ .
(٢) السابق ٥ / ٥٤٥ .
(٣) التحرير والتنوير مجلد ٨ جزء ٢٠ / ٢٣٥ .

له عند ربه ﴾ **وهذا فيه تعريض بأن من لا يعظم حرمات الله ويعبد غيره يناله العقاب الوخيم والخسران المبين ، والإشارة بـ"ذلك" إلى قوله تعالى :** ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ **إلى قوله :** ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ العَتِيقِ ﴾[١] **. ويعقب الشهاب الخفاجي على قول البيضاوي : " وهو وأمثاله يطلق للفصل بين كلامين "** [٢] **بقوله : " قوله هو وأمثاله " أي : من أسماء الإشارة كهذه ، وتلك ، والمشهور فيه : " هذا " كقوله تعالى :** ﴿ هذا وإن للطاغين لشر مآب ﴾ [٣] **، واختيار " ذلك " هنا لدلالته على تعظيم الأمر وبُعد منزلته وهو من الاقتضاب القريب من التخلص ، لملاءة ما بعده لما قبله كما هنا "** [٤] **، وقول الشهاب : " وهو من الاقتضاب القريب من التخلص..." فيه إشارة إلي ثلاث مصطلحات بلاغية هي : حسن التخلص ، والاقتضاب ، والاقتضاب القريب من التخلص ، أما حسن التخلص فهو : الانتقال مما ابْتُدئ الكلام به من تشبيب أو غيره إلي المقصود مع رعاية الملاءَمة بينهما، أما الاقتضاب فهو : أن ينتقل من الفن الذي ابتدأ الكلام به إلي مالا يلائمه، أما الاقتضاب القريب من التخلص فهو : الذي لا يخلو من شئ من المناسبة والملاءمة بين الغرض الأول وما انتقل إليه** [٥] **.**

---

(١) الآيات ٢٦ ــ ٢٩ .
(٢) تفسير البيضاوي بهامش حاشية الشهاب عليه ٥١١/٦ .
(٣) سورة ص الآية ٥٥ .
(٤) حاشية الشهاب للخفاجي ٥١١/٦ .
(٥) راجع : بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح لعبد المتعال الصعيدي ٧٠٩/٤ وما بعدها مكتبة الآداب ، ط أولى ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م .

والاقتضاب القريب من التخلص في الآية الذي أشار إليه الشهاب راجع إلي أن الحديث الأول عن تطهير البيت للطائفين والقائمين والركع السجود ، ثم الأمر بنداء الناس وإعلامهم بالحج واستجابة الناس لهذا النداء ، لما فيه من المنافع ، ثم الأمر بنحر الضحايا والأكل منها وإطعام الفقراء ، ثم إتمام ما بقي عليهم من أمر الحج كالحلق ورمي الجمار وإزالة شعثٍ ونحوه [١] ، ثم جاءت الإشارة " ذلك " إلي حديث الحج السابق وليمهد بها إلي الانتقال إلي موضوع أعم من الحج وإن كان متصلاً به ، وهذا التوجيه قائم على أحد وجهين في توجيه "الحرمات" الآول : أن المقصود بها هنا هي أفعال الحج المشار إليها في قوله : ﴿ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم...﴾ ويدخل في ذلك تعظيم المواضع[٢] وعلى هذا التفسير فليس في الآية انتقال من كلام إلي كلام بل هو كلام واحد عن الحج فلا يوجد في الآية اقتضابُ ولا اقتضاب قريب من التخلص ، والوجه الثاني كما يقول القرطبي : " ... ويَجْمَعُ ذلك أن تقول : الحرمات امتثال الأمر في فرائضه وسننه " [٣] ، وعلى هذا الوجه فإن أسلوب الآية قد عمم بعد تخصيص فقد كان الحديث أولاً عن الحج ، ثم انتقل منه إلي الحديث عن جميع الفرائض والسنن في جميع العبادات ، ولا شك أن الصلة بين عبادة الحج وبقية العبادات قائمة واضحة تسوِّغ هذا الانتقال الذي أشار إليه الشهاب في قوله : " وهو من الاقتضاب القريب من التخلص ... " وقول البيضاوي عن اسم الإشارة " ذلك " أنه يطلق للفصل بين كلامين " . ولذا يقول الزمخشري[٤] " ... كما

---

(١) راجع : تفسير القرطبي ١٣١/٧ .
(٢) السابق : ٧/ ١٣٥ .
(٣) السابق : ٧/ ١٣٥ .
(٤) الكشاف للزمخشري ١١/٣ .

يقدم الكاتب جملة من كتابه في بعض لمعاني ثم إذا أراد الخوض في معنى آخر قال : هذا وقد كان كذا ، يقول أبو حيان [١] : " ونظير هذه الإشارة البليغة قول زهير وقد تقدم له جُمل في وصف هرم .

هذا: وليس كمن يعيا بخطبته وسط الندى إذا ما ناطق نطقا[٢]

وكان وصفه قبل بالكرم والشجاعة ثم وصفه في هذا البيت بالبلاغة وكأنه قال: هذا خُلُقُه وليس كمن يعيا بخطبته .

وقول أبى حيان : " ونظير هذه الإشارة البليغة قول زهير " لا يقصد تنظير كلام زهير بكلام الله تعالى في بلاغته وحسن سبكه ودقة تركيبه ، فهذا مالا يقول به أمثال أبى حيان ، إنما قصده نظيره في الطريقة والمسلك ، وكم ممن سلكوا مسلكاً واحداً فطاول أحدهم السماء ، ونزل الآخر إلى الحضيض ، ولله المثل الأعلى .

والإخبار باجتناب الأصنام " وجعلها رجسا . وقرنها بشهادة الزور ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ والتعبير عن الأوثان بالرجس وهو القذر والأوساخ[٣] وعبادة الأوثان قذر معنوي يفوق القذر الحسي . كل ذلك من المبالغة التي تؤكد المعنى وتقويه و" من " في قوله " من الأوثان " يحتمل أن تكون لبيان الجنس وهو المشهور والأليق بسياق الآية ، وابتدائية وتبعيضه وكان لها في كل توجيه معنى رائق وإضافة جديدة وإن كان

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٥٠٤/٧ .
(٢) انظر ديوان زهير بن أبى سلمى ص٤٣ ــ دار صادر بيروت ــ من دون .
(٣) المفردات للراغب ص١٩٤ .

الألوسي[١] والشهاب[٢] وصف الرأيين الأخيرين بالتكلف المستغنى عنه ، فمن قال إنها لبيان الجنس وتمييز له جعلها كقولك : عندي عشرون من الدراهم ، لأن الرجس مبهم كأنه قيل : فاجتنبوا الرجس الذي هو الأصنام[٣] ، ومن جعلها لابتداء الغاية فكأنه نهاهم عن الرجس عاماً ثم عين لهم مبدأه الذي منه يلحقهم إذ عبادة الوثن جامعة لكل فساد ورجس [٤] ومن جعلها للتبعيض " عني بالرجس عبادة الأصنام فكأنه قال : فاجتنبوا من الأوثان الرجس وهو العبادة ، لأن المحرم من الأوثان إنما هو العبادة ألا ترى أنه قد يتصور استعمال الوثن في بناء وغير ذلك مما لم يحرمه الشرع ؟ فكأن للوثن جهات منها عبادتها وهو المأمور باجتنابه وعبادتها بعض جهاتها[٥] وهذا معنى لطيف ، وفيه إضافة جديدة وقد رفضه ابن عطية[٦] قائلا " ومن قال " من " للتبعيض قلب معنى الآية ويفسده " لكن الألوسي[٧] جعل كلامه هذا ليس في محله .

وتعريف " الرجس " بلام الجنس حتى كأنها جنس النجاسة مع ما فيه من الإبهام والتبيين حيث أبهم في قوله " الرجس " وبين في قوله " من الأوثان " وإيقاع الاجتناب على الذات دون العبادة مالا

---

(١) روح المعاني للألوسي ١٤/١٢ ط . أولى ١٤١٨عـ/١٩٩٧م ـ دار الغد العربي .
(٢) حاشية الشهاب الخفاجي ٥١٢/٦ .
(٣) الكشاف للزمخشري ١٢/٣ .
(٤) البحر المحيط لأبي حيان ٥٠٤/٧ ، المحرر الوجيز لابن عطية ١٢٠/٤ تحقيق عبدالسلام عبدالشافي محمد ط . ١٤١٣هـ/١٩٩٣م ، دار الكتب العلمية .
(٥) البحر المحيط لأبي حيان ٥٠٤/٧ .
(٦) المحرر الوجيز لابن عطية ١٢٠/٤ .
(٧) روح المعاني للألوسي ١٤/١٢ .

يخفى من المبالغة في التنفير عن عبادتها[١] ولما كان قول الزور معادلا للكفر لم يعطف على الرجس بل أفرد بأن كرر له العامل اعتناء باجتنابه[٢].

وفي قوله : " فاجتنبوا الرجس من الأوثان " تشبيه بليغ على طريق التجريد " فقد سمي الأوثان رجسا وكذلك الخمر والميسر والأزلام يعني : أنكم كما تنفرون بطباعكم عن الرجس وتجتنبونه فعليكم أن تنفروا عن هذه الأشياء مثل تلك النقرة ، ونبه على هذا المعنى بقوله : " رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه"[٣] جعلت العلة في اجتنابه أنه رجس والرجس مجتنب . [٤]

والمتأمل في هذا التشبيه لا يجد المشبه به أقوى في وجه الشبه بل على العكس يجد المشبه أقوى فظاهر التركيب اجتنبوا عبادة الأوثان كما تجتنبون الرجس، وإذا كان الرجس قذرًا حسيًا فإن عبادة الأوثان قذرٌ معنوي وهو أقوى وأشد ضرراً وفتكا بصاحبه ينتج سوء العاقبة والخلود في النار والقذر المعنوي كسوء الأخلاق والخوض في أعراض الناس والكفر بآيات الله تعالى وهو أعلاها مفسدة ، وأضرها عاقبة ، ومنه تتولد كل المفاسد والأضرار ، ولعل مجيء التشبيه على هذه الصورة ، لأنه لما كان الرجس الحسي محسوس الضرر ، ملموس العواقب. مشاهد الآثار جاء التركيب هكذا لبيان سوء الأمرين والتنفير من شأنهما حتى لا يتصف أحد بهما. لأن عاقبتهما سيئة ، ونتيجتهما مهلكة ولذا يقول البيضاوي:

---

(١) حاشية الشهاب الخفاجي ٥١٢/٦ .
(٢) البحر المحيط لأبي حيان ٥٠٥/٧ .
(٣) المائدة ٩٠ .
(٤) الكشاف للزمخشري ١٢/٣ حاشية الشهاب الخفاجي ٥١٢/٦ .

"فاجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان كما تجتنب الأنجاس وهو غاية المبالغة في النهي عن تعظيمها والتنفير من عبادتها " (١).

وهو من قبيل تشبيه المعقول بالمحسوس الذي يأتي لتمكين المعنى وتجسيده عند المخاطب وقد قال الإمام عبد القاهر الجرجاني وهو يعدد أسباب تأثير التمثيل في النفس : " ... إن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي ، وتأتيها بصريح بعد مكني ، وأن تردها إلى الشيء تعلمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم ، وثقتها به في المعرفة أحكم ، نحو أن تنقلها من العقل إلى الإحساس ، وعما يُعلم بالفكر إلى ما يُعلم بالاضطرار والطبع ، لأن العلم المستفاد من جهة الحواس أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حد الضرورة يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام وبلوغ الثقة فيه غاية التمام كما قالوا ليس الخبر كالمعاينة ولا الظن كاليقين ... " (٢).

وهذا الأسلوب من قبيل التعميم بعد التخصيص ، فإن عبادة الأوثان رأس الزور لأن المشرك زاعم أن الوثن يحق له العبادة كأنه قال : فاجتنبوا عبادة الأوثان التي هي رأس الزور واجتنبوا قول الزور كله لا تقربوا منه شيئا لتماديه في القبح والسماجة ، وما ظنك بشيء من قبيل عبادة الأوثان (٣).

أما آيتا العنكبوت فالموطن الأول في بداية قصة سيدنا إبراهيم والموطن الثاني تختم به القصة في قوله تعالى : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن

---

(١) تفسير البيضاوي بهامش حاشية الشيخ زاده ٣٨٣/٣ .
(٢) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني ص١٢١ تعليق : محمود محمد شاكر ، ط.أولى ١٤١٢هـ مطبعة المدني بالقاهرة.
(٣) حاشية الجمل ١٦٥/٣ ، وحاشية زاده ٣٨٣/٣ .

دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ البَلاغُ المُبِينُ * أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ * وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ القِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ **الآيات ١٦ ـ ٢٥ .**

فسيدنا إبراهيم يأمر قومه بعبادة الله وتقواه " أعبدوا الله واتقوه " ففي ذلك الخير الكثير ، وينهاهم عن عبادة الأوثان التي هم عليها ، ويستدل على بطلان عبادتها بدليلين الأول قوله : ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً ﴾ ويأتي أسلوب القصر " إنما " ليقصر عبادتهم على الأوثان التي هي تماثيل من خشب لا نفع فيها أي : ما تعبدون من دونه إلا أوثانا هي في نفسها تماثيل مصنوعة لكم . ليس فيها وصف غير ذلك[١] وفي ذلك دلالة على عدم فائدتها بل مضرتها الشديدة ، ثم أكد ذلك بقوله : " وتخلقون إفكا " وتخلقون مضارع خلق الخبر أي : اختلقه أي : كَذَبَه ووضعه والإفك هو الكذب[٢] أي تضعون لها أخباراً ومناقب وأعمالا مكذوبة موهومة[٣] ،

---

(١) روح المعاني للألوسي ١٤ / ١٢٧ .
(٢) المفردات للراغب ص٢٩ .
(٣) التحرير والتنوير مجلد ٨ جزء ٢٠/٢٢٤ .

ولما كان الاختلاق هو الكذب والإفك هو الكذب أيضا فسرها الألوسي[١] بقوله : " وتكذبون كذبا حيث تسمونها آلهة وتدعون أنها شفعاؤكم عند الله سبحانه " وسميت إفكا توسعا من حيث يفترون بها الإفك في أنها آلهة [٢].

والدليل الثاني على بطلان عبادة الأوثان قوله :﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ وفي تكرير جملة " إنما تعبدون من دون الله " و" وإن الذين تعبدون من دون الله " إشارة إلى قبح صنيعهم ، وسوء تقديرهم ووصم لهذه العبادة بالسفه ولعقولهم بقلة الفكر والتدبر ، وقد وردت عبارة "من دون الله " في الآيات أربع مرات وفي ذلك دلالة على أن الحديث يركز على عبادة غير الله تعالى حتى يكشف لهم القضية ويوضح فسادها وبطلانها من كل الوجوه ، ثم يتأكد الخبر بإن واسمية الجملة ويأتي المسند إليه اسم موصول ليشير إلى وجه الخبر ونوعه فمضمون الصلة التي هي العبادة من دون الله يشير إلى الخبر ويومئ إليه " لا يملكون لكم رزقا " ثم نفى عنهم تملكهم أي شيء من الرزق وأتى بكلمة "رزقا" نكرة في سياق النفي لتفيد عموم النفي فيعم أي شيء من الرزق قليلا أو حقيرا[٣] وما لا يستطيع أن يرزق لا يستحق العبادة وهذا الفعل من الأفعال التي نفيت عن الأوثان ونفيه وحده ينفي عنها الألوهية فكيف وقد نفى عنها كل صفات الإله الحق؟!!

---

(١) روح المعاني للألوسي ١٢٧/١٤ .
(٢) الكشاف للزمخشري ٢٠١/٣ ، والبحر المحيط لأبي حيان ٣٤٨/٨ .
(٣) راجع حاشية الجمل ٣٧١/٣ .

وقد قوبل نفي الرزق عن الأصنام بإثباته لله تعالى : ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ وتأتي أفعال الأمر متوالية ــ ابتغوا ــ واعبدوه ــ واشكروا له ــ لأن ابتغاء الرزق لا يكون إلا منه والعبادة لا تكون إلا له ولذا ذكر مفعول العبادة وهو الهاء في قوله " وأعبدوه " وعدى الشكر باللام لقصد إفادة ما في اللام من معنى الاختصاص "[١] وقد عرف الرزق هنا لدلالته على العموم لأنه تعالى عنده الأرزاق كلها وهو الرازق وحده لا يرزق غيره[٢] وقد أضاف الرازي[٣] وجها آخر يقول : " ... وفيه وجه آخر : وهو أن الرزق من الله معروف لقوله تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾[٤] والرزق من الأوثان غير معلوم فقال : ﴿ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً ﴾ لعدم حصول العلم به" وهذه المقابلة تظهر استحقاقه تعالى بالعبادة وحده دون الأوثان العاجزة التي لا تملك شيئا من الرزق ، الذي له مكانة في نفوس الخلائق ومنزلة كبيرة "فهو مشغلة النفوس، وبخاصة تلك التي لم يستقر فيها الإيمان ، ولكن ابتغاء الرزق من الله وحده حقيقة لا مجرد استثارة للميول الكامنة في النفوس"[٥] ولذلك خص ذكر الرزق لمكانته من الخلق[٦] وقد أمر عباده بعبادته وشكره بعد طلب الرزق ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾

---

(١) التحرير والتنوير مجلد ٨ جزء ٢٠ / ٢٢٨ .
(٢) راجع الكشاف للزمخشري٣/٢٠١ ، والبحر المحيط لأبي حيان ٣٤٨/٨ .
(٣) مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٣٦٤/١٢ .
(٤) هود ٦ .
(٥) الظلال لسيد قطب ٥ / ٢٧٢٨ .
(٦) البحر المحيط لأبي حيان ٨ / ٣٤٨ .

لأن الأول سبب لحدوث الرزق والثاني سبب لبقائه ، لأن الشكر يزيد النعم والمعاصي تزيل النعم [١].

ولما كان الحديث عن عبادة الله وحده والنهي عن عبادة الأوثان والخطاب للكفرة ومنكري البعث شاع في الأسلوب التهديد والوعيد لمن كذَّب وعبد غير الله تعالى ، وأقيمت لهم الأدلة الدليل تلو الدليل على توحيد الله وفساد عبادة الأوثان فقوله :﴿ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ تهديد ووعيد وجواب الشرط محذوف أي : فلا يضرني تكذيبكم وإنما تضرون أنفسكم[٢] ولذا ذيلت الآية بقوله " وما على الرسول إلا البلاغ المبين" بقصره ﷺ على البلاغ المبين فقط ولذا يقول الزمخشري[٣] وعلى الرسول أن يبلغ وما عليه أن يُصَدَّق ولا يُكَذَّب ، فالحصر من قبيل الحصر الإضافي [٤].

وقوله ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ فيه دليل على استحقاقه العبادة وتعريض بهذه الأصنام العاجزة التي لا تملك من أمر نفسها شيئا وهو حديث عن الحشر والإعادة ، والاستفهام للإنكار والتقدير أي : قد رأوا[٥] وجملة " إن ذلك على الله يسير " تدل على قدرة الله القادرة . فأمثال هذه الأمور العظام يسيرة عليه ، ولذا جاء الخبر مؤكداً بإن واسمية الجملة والمجيء بلفظ " يسير " وهو ضد العسر وهو الشيء السهل[٦] وفيها

---

(١) راجع حاشية الجمل٣/٣٧١، وحاشية الشهاب الخفاجي٧/٣٤٠ .
(٢) حاشية الجمل ٣ / ٣٧١ .
(٣) الكشاف للزمخشري ٣/٢٠١.
(٤) حاشية الشهاب الخفاجي ٧/٣٤١ .
(٥) السابق .
(٦) المفردات للراغب الأصفهاني ص٥٥٣ .

تعريض بالأصنام العاجزة ، وإظهار لفظ الجلالة في مقام الإضمار وظاهر الأسلوب : " أن ذلك عليه يسير ولكنه جاء إلى ما عليه النظم لأنه " ... مع إقامة البرهان على أنه يسير فأكده بإظهار اسمه فإنه يوجب المعرفة أيضا بكون ذلك يسير ، فإن الإنسان إذا سمع لفظ " الله " وفهم معناه أنه الحي القادر بقدرة كاملة لا يعجزه شيء ... يقطع بجواز الإعادة[١] وكما يقول صاحب الظلال[٢] " وليس في خلق الله شيء عسير ولكنه يقيس للبشر بمقاييسهم فالإعادة أيسر من البدء في تقديرهم ، وإلا فالبدء كالإعادة بالقياس إلى قدرة الله تعالى"

وقوله ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ يأمر تعالى بالسير في الأرض للنظر كيف بدأ الخلق " إن التعبير بلفظ الماضي " بدأ الخلق " بعد الأمر بالسير في الأرض لينظروا كيف بدأ الخلق يثير في النفس خاطراً معينا ... ترى هنالك في الأرض ما يدل على نشأة الحياة الأولى ، وكيفية بدء الخليقة فيها كالحفريات التي يتتبعها بعض العلماء اليوم ليعرفوا منها خط الحياة كيف نشأت؟ وكيف انتشرت ؟ وكيف ارتقت ؟ ــ وإن كانوا لم يصلوا إلى شيء في معرفة سر الحياة : ما هي ؟ ومن أين جاءت إلى الأرض ؟ وكيف وجد فيها أول كائن حي ؟ ويكون ذلك توجيها من الله للبحث عن نشأة الحياة الأولى والاستدلال به عند معرفتها على النشأة الآخرة " [٣].

وكعادة المفسرين يقارنون بين أساليب الآيات ليستخرجوا أسرار التغاير وأغراض المخالفة الأسلوبية فيقابلون هذه الآية ﴿ قُلْ

---

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٣٦٦/١٢ .
(٢) الظلال لسيد قطب ٥ / ٢٧٢٩ .
(٣) السابق .

سِيرُوا فِي الأَرْضِ ...﴾ **بسابقتها** ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ... ﴾ **ويقولون " أبرز اسم الله في الآية الأولى عند البدء حيث قال " كيف يبدئ الله الخلق " وأضمره عند الإعادة "ثم يعيده " وفي هذه الآية أضمره عند البدء " فانظر كيف بدأ الخلق " وأبرزه عند الإعادة حيث قال : " ثم الله ينشئ النشأة الآخرة " ويجيبون : لأنه في الآية الأولى لم يسبق ذكر " الله " بفعل حتى يسند إليه البدء فقال " يبدئ الله " ثم قال "يعيده" وفي الآية الثانية كان ذكر البدء مسنداً إلى الله تعالى فاكتفى به ، وأما إظهاره عند الإنشاء ثانيا حيث قال :" ثم الله ينشئ النشأة الآخرة " فليقع في ذهن السامع كمال قدرته وعلمه وإرادته[١] يقول الزمخشري " فإن قلت : ما معنى الإفصاح باسمه مع إيقاعه مبتدأ في قوله ــ ثم الله ينشئ النشأة الآخرة " بعد إضماره في قوله " كيف بدأ الخلق " وكان القياس أن يقال : كيف بدأ الله الخلق ثم ينشئ النشأة الآخرة ؟ قلت : الكلام معهم كان واقعا في الإعادة ، وفيها كانت تصطك الركب ، فلما قررهم في الإبداء بأنه من الله احتج عليهم بأن الإعادة إنشاء مثل الإبداء ، فإذا كان الله الذي لا يعجزه شيء هو الذي لم يعجزه الإبداء فهو الذي وجب أن لا تعجزه الإعادة ... فللدلالة والتنبيه على هذا المعنى أبرز اسمه وأوقعه مبتدأ"[٢] ويعقب ابن المنير على كلام الزمخشري بقوله : "...والأصل الإظهار ثم الإضمار، ويليه لقصد التفخيم الإظهار بعد الإظهار، ويليه وهو أفخم الثلاثة ، الإظهار بعد الإضمار كما في الآية"[٣].**

وتُذيَّل الآية بما يدل على قدرته " إن الله على كل شيء قدير " وهي تعليل لما قبلها بطريق التحقيق ، فإن من علم قدرته عز وجل

---

(١) راجع : مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٣٦٧/١٢ والبحر المحيط لأبي حيان ٣٤٩/٨ ، وحاشية الجمل ٣٧٢/٣ .
(٢) الكشاف للزمخشري ٢٠٢/٣ .
(٣) الانتصاف لأحمد بن المنير بهامش الكشاف ٢٠٢/٣ .

على جميع الممكنات التي من جملتها الإعادة لا يتصور أن يتردد في قدرته سبحانه عليها ولا في وقوعها بعدما أخبر به [١] وإظهار اسم الجلالة فيها لتكون جملة التذييل مستقلة بنفسها فتجري مجرى الأمثال"[٢].

وفي نظم الدرر[٣] كرر ذكره تنبيهاً بعد التيمن به على ما ذكره وعلى أنه في كل أفعاله لاسيما هذا ، مطلق غير مقيد بجهة من الجهات ، ولا مشروط بأمر من الأمور " .

ـ وهذه الجملة التذيلية تتناسب مع ما يأتي بعدها ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ * وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ فمن قدرة الله على كل شيء تعذيبه من يشاء ورحمته لمن يشاء ، وإليه وحده المآب لا يعجزه أحد ولا يمتنع عليه أحد[٤] وألفاظ الآيات صارخة حارقة مهددة متوعدة فهي مع الذين اتخذوا من دون الله أندادا وكفروا وكذبوا ولذا قدم ذكر العذاب " يعذب من يشاء " على ذكر الرحمة ، وذكر الرحمة وقع تبعا لئلا يكون العذاب مذكورا وحده [٥].

وقوله " وإليه تقلبون " تعبير عن المآب فيه عنف إذ يدل على عدم النظر إلى مشاعرهم وأحاسيسهم وإنما يقلبون قلبا ، وقلب الشيء تصريفه وصرفه عن وجه إلى وجه كقلب الثوب وقلب الإنسان أي صرفه عن طريقته[٦] وهذه اللفظة "يقلبون" صورت حال

---

(١) روح المعاني للألوسي ١٣٦/١٤ .
(٢) التحرير والتنوير مجلد ٨ جزء ٢٣١/٢٠ .
(٣) ٥ / ٥٤٨ .
(٤) الظلال لسيد قطب ٥ / ٢٧٣٠ .
(٥) مفاتيح الغيب للفخر الرازي ١٢ / ٣٦٩ .
(٦) المفردات للراغب ص٤١١ .

الكفار وسوء خاتمتهم وخيبة عاقبتهم بجرس الكلمة وظلها وهي طريقة القرآن في خطاب الكفرة والمعاندين كقوله تعالى ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعاً ﴾[١] **يقول الشيخ سيد قطب ــ رحمه الله ــ** [٢] **فلفظ " الدع " يصور مدلوله بجرسه وظله جميعا ، وهذا العنف يناسب المعنى بعده** ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ ﴾ **ولم يقل : لا تعجزون بصيغة الفعل ، وذلك لأن نفي الفعل لا يدل على نفي الصلاحية، فإن من قال : إن فلانا لا يخيط ، لا يدل على ما يدل عليه قوله : إنه ليس بخياط**[٣].

وقوله ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ **وعيد وتهديد أي : ييأسون يوم القيامة ... أو هو وصف لحالهم لأن المؤمن إنما يكون راجيا ، خاشيا فأما الكافر فلا يخطر بباله رجاء ولا خوف ، أو شبه حالهم في انتفاء الرحمة عنهم بحال من يئس من الرحمة"** [٤].

وقوله " وأولئك لهم عذاب أليم " في تكرير اسم الإشارة وتكرير الإسناد وتنكير العذاب ووصفه بالأليم من الدلالة على فظاعة حالهم مالا يخفى[٥] **وفي الإتيان بلام الملك التي يغلب استعمالها في**

---

(١) الطور ١٣ .
(٢) التصوير الفني للقرآن لسيد قطب ص٨١ الطبعة الشرعية ١٧ ــ دار الشروق .
(٣) راجع الظلال لسيد قطب ٢٧٣١/٥ ، مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٣٧١/١٢ .
(٤) الكشاف للزمخشري ٢٠٣/٣ .
(٥) روح المعاني للألوسي ١٤٠/١٤ .

المحبوب . " لهم عذاب " تهكم بهم ووصف العذاب بالأليم مبالغة في إيلامه في الدنيا والآخرة [١].

وبعد هذا التهديد والوعيد الذي هو خطاب لكل منكر لـدعوة الإيمان ، ولقوم إبراهيم ضمنا ، يعود لبيان جواب قوم إبراهيم علـى قوله لهم : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ فيبـدو هذا الجواب غريبا عجيبا يكشف عن تبجح الكفر والطغيان بما يملـك من قوة وسلطان[٢]﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

فقد سموا قولهم " اقتلوه أو حرقوه " جوابا مع أنه ليس بجواب لوجهين: الأول: أنه خرج منهم مخرج كلام المتكبر كما يقول الملـك لرسول خصمه : جوابكم السيف مع أن السيف ليس بجواب ، وإنمـا معناه لا أقابله بالجواب وإنما أقابله بالسيف ... الثاني : هـو أن الله تعالى أراد بيان ضلالتهم ، وهو أنهم ذكروا في معرض الجواب هـذا مع أنه ليس بجواب فتبين أنهم ليس عندهم جـواب أصـلا..." [٣] . والوجه الأول أولى وفيه يظهر عنتهم وطغيانهم وقوة تجبرهم وترى فيه الطغيان قد أسفر عن وجهه الكالح ، ولم يكن إبراهيم ــ عليـه السلام ــ يملك له دفعا ، ولا يستطيع منه وقاية ، وهو فرد أعزل لا حول له ولا طول ، فهنا تتدخل القدرة سافرة كذلك تتدخل بـالمعجزة الخارقة لمألوف البشر ﴿ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ﴾ ... " [٤].

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ٥/٥٥٠ .
(٢) الظلال لسيد قطب ٥ / ٢٧٣١ .
(٣) مفاتيح الغيب للفخر الرازي ١٢ / ٣٧٣ .
(٤) الظلال لسيد قطب ٥ / ٢٧٣١ .

ـ وبعد نجاته ـ عليه السلام ـ يرى أن القوم لم تلن قلوبهم للمعجزة الواضحة فيعاود تذكيرهم بأن هذه الأوثان المعبودة من دون الله لا تضر ولا تنفع ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ القِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ وقوله : " وقال إبراهيم " معطوف على " فأنجاه الله من النار" أي : قال بعد إنجائه من النار " إنما اتخذتم ... " ولم يحصل له منهم رعب ولا مهابة(١).

ومعنى "اتخذتم" أي: أخذتم باصطناع وتكلف، لا اعتقاداً وإقناعاً بأحقية هذه العبادة إنما يجامل بعضكم بعضا ويوافق بعضكم بعضا على هذه العبادة(٢)وهذا الفعل يراد به الاستمرار والبقاء على اتخاذها بعد وضوح حجة بطلان استحقاقها العباده والخبر مستعمل للتنبيه على الخطأ بقرينة قوله عقبه ﴿ ثُمَّ يَوْمَ القِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً ﴾(٣) يقول لقومه مقرعا لهم وموبخاً على سوء صنيعهم في عبادتهم للأوثان إنما اتخذتم هذه لتجتمعوا على عبادتها في الدنيا صداقة وألفة منكم بعضكم لبعض في الحياة الدنيا وهذا على قراءة من نصب "مودة بينكم" على أنه مفعول به، وأما على قراءة الرفع(٤) فمعناه: إنما اتخاذكم هذه لتحصل لكم المودة في الدنيا فقط(٥).

والأسلوب كله طافح بالاستهزاء والتهكم فاستعمال أداة القصر إنما ، ومن بين استعمالاتها أن تستعمل في الأمور الواضحة

---

(١) حاشية الجمل ٣ / ٣٧٣ .
(٢) راجع نظم الدرر للبقاعي٥/٥٥١، والظلال لسيد قطب٥/٢٧٣٢ .
(٣) راجع التحرير والتنوير مجلد ٨ جزء ٢٠ / ٢٣٦ .
(٤) راجع النشر في القراءات العشر لابن الجزري ٢ / ٢٥٧ قدم له على محمد الضباع تخريج آياته الشيخ زكريا عميرات ط أولى ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .
(٥) ابن كثير ٣ / ٤١٠ .

الجلية كقولك إنما زيد أخوك ، وأيضا فإن بطلان عبادة الأوثان من الوضوح والظهور بحيث لا تخفى على أحد ، واختيار فعل الاتخاذ . وفيه من التكلف والاصطناع دون الأصالة والتحقيق ، ثم استعمال لفظ أوثان مع جمعه ، كما أن هذا الاتخاذ كان لأجل المودة والإبقاء على التحاب ولكن ينقلب الأمر على عكسه ، ويصير إلى ضده .

﴿ ثُمَّ يَوْمَ القِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ ... ﴾ .

﴿ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً ﴾ ....

﴿ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ... ﴾ .

﴿ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ ....

وهذه الجزاءات المتوالية والعقوبات الشديدة تتناسب مع كفرهم وعبادتهم غير الله تعالى !!

ثالثاً : لفظ التماثيل :

ورد لفظ التماثيل في القرآن الكريم مرتين[1] على النحو التالي :

١ ــ في قصة إبراهيم في قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ الأنبياء ٥٢ .

٢ ــ في سورة سبأ في قصة سيدنا سليمان ــ عليه السلام ــ في قوله تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ القِطْرِ وَمِنَ الجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوابِ وَقُدُورٍ

---

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص٨٣٦ .

رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ آيتا ١٢، ١٣ .

أما الموطن الأول فقد عرضت له عند الحديث عن لفظ " أصنام " في الموطن الرابع ، وأما الموطن الثاني فإن لفظة "تماثيل" هذه المرة ليس مقصوداً بها آلهة تعبد من دون الله تعالى ، إنما المقصود بها أنها من بين النعم التي أنعم الله بها على سليمان عليه السلام ، فالآية جاءت في ذكر نعمه تعالى على سليمان، من تسخير الريح له ، وسيلان النحاس له حتى صار كالعين النابعة من الأرض ، وتسخير الجن له يعملون بين يديه بإذن ربه من البنايات وغير ذلك[١] ، ثم عقب الآية بقوله : ﴿ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ "ولعل هذا التعقيب قبل الانتهاء من قصة التسخير يذكر على هذا النحو لبيان خضوع الجن لله ، وكان بعض المشركين يعبدهم من دون الله ، وهم مثلهم معرضون للعقاب عندما يزيغون عن أمر الله ، وهم مسخرون لسليمان عليه السلام"[٢] ثم ذكر بقية ما يعمله الجن كالمحاريب : وهي المجالس والمساكن الشريفة المصونة عن الابتذال سميت محاريب لأنه يحامي عليها ، ويُذَبُّ عنها[٣] والتماثيل : الصور من نحاس وخشب وغيره ، وقال الزمخشري[٤] : هي صور الملائكة والنبيين والصالحين كانت تعمل في المساجد من نحاس وصفر ــ ذهب ــ وزجاج ورخام ليراها الناس فيعبدوا نحو عبادتهم ، وهذا مما يجوز أن تختلف فيه الشرائع لأنه ليس من مقبحات الفعل كالظلم

---

(١) راجع ابن كثير ٣ / ٥٢٩ ، وحاشية الجمل ٣ / ٤٦٣ .
(٢) الظلال لسيد قطب ٥ / ٢٨٩٨ .
(٣) الكشاف للزمخشري ٣ / ٢٨٢ .
(٤) الكشاف للزمخشري ٢٨٢/٣ ، وانظر البحر المحيط لأبي حيان ٥٢٨/٨ .

والكذب وعن أبى العالية : لم يكن اتخاذ الصور إذ ذاك محرمـــا ، أو صورا محذوفة الرءوس ...

والجوابي : جمع جابية وهي الحوض الذي يُجْبَي فيه الماء ، وقد كانت الجن تصنع لسليمان جفانا كبيرة للطعام تشبه الجـــوابي ، وتصنع له قدوراً ضخمة للطبخ راسية لضخامتها ، وهذه كلها نماذج مما سخر الله الجن لسليمان لتقوم له به حيث شاء بإذن الله ، وكلها أمور خارقة لا سبيل إلى تصورها أو تعليلها إلا بأنها خارقة من صنع الله ، وهذا هو تفسيرها الواضح الوحيد [١].

وقُدمت المحاريب على التماثيل ؛ لأن النقـــوش تكـــون فـــي الأبنية وقُدِّم الجفان على القدور ، لأن القدور آلة الطبخ والجفان آلة الأكل والطبخ قبل الأكل ... وذكر في حق داود اشتغاله بآلة الحـــرب لاحتياجه إلى قتال الأعداء ، وفي حق سليمان المحاريب والتماثيل ، لأنه كان ملكا ابن ملك ، قد وطد له أبوه الملك فكانت حاله حالة سلم إذ لم يكن أحد يقدر على محاربته[٢].

رابعاً : لفظ الآلهة :

أطلق لفظ "إله" في القرآن الكريم على المولى سبحانه وتعالى في الأعم الأغلب وذلك لأن القرآن نزل لتقرير الوحدانية ومن ذلـــك قوله تعالى :

﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ [٣].

---

(١) الظلال لسيد قطب ٥ / ٢٧٨٨ ، وانظر حاشية الجمل ٣/٤٦٤ ، والبحر المحيط لأبي حيان ٨ / ٥٢٨ .
(٢) البحر المحيط لأبي حيان ٨ / ٥٢٩ .
(٣) البقرة ١٦٣ .

﴿ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ ﴾(١) .

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُوا العِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾(٢) .

كما أطلق لفظ الإله على غير المولى سبحانه ، فقد حكى المولى اعتقاد الكفرة الفاسد ، وزعمهم الباطل حيث أطلقوا لفظ الإله على هذه الأصنام المنحوتة والتماثيل المصورة والأوثان العاجزة ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴾ **طه ٨٨ .**

﴿ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ **الأعراف ١٣٨ .**

﴿ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ... ﴾ **الأنبياء ٣٦ .**

﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ **الأنبياء ٦٨ .**

﴿ وَانطَلَقَ المَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ ... ﴾**ص٦ .**

﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ ﴾ **هود٥٣.**

﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا... ﴾ **الفرقان٤٢ .**

وقد حاولت أن أجد فروقا أسلوبية في الاستعمال القرآني بين لفظة "إله" عندما تطلق عليه تعالى وبينها عندما تطلق على الإله المُدَّعي من دون الله فاهتديت إلى بعض الفوارق هي :

---

(١) آل عمران ٢ .
(٢) آل عمران ١٨ .

أولاً : عندما تأتي لفظة " إله " يراد بها المولى عز وجل لا تأتي إلا مفردة إتساقا مع دعوة التوحيد التي جاء بها الرسل عليهم السلام من لدن آدم إلى محمد عليه السلام والأمثلة أكثر من أن تذكر وأشهر من أن يدلل لها ، أما الآلهة المدعاة فيطلق عليها اللفظ مفرداً وجمعا ، مفرداً ليحاكوا به الإله الحق وأنىَّ لهم ذلك؟!! ، وجمعاً إخباراً عن واقعهم فقد بلغ من أمرهم . أن كان لكل واحد منهم صنم يعبده .

ثانياً : لفظ " إله " عندما يراد به المولى عز وجل يأتي مثبتا مؤكداً مرة ومجرداً من التأكيد أخرى حسب السياق الذي جاء فيه ، أما من حيث الإثبات فقد أنزل القرآن من أجل ذلك ... أما التأكيد أو التجريد فذلك راجع إلى المقام والسياق فمن التأكيد قوله تعالى :

﴿وَقَالَ اللَّهُ لاَ تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ **النحل ٥١**

﴿ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾ **طه ٩٨**

﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ **الأنبياء ١٠٨**

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ **الكهف١١٠**

﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ **المؤمنون١١٦ .**

ففي آية النحل نهي عن اتخاذ إلهين اثنين وأكد إلهين باثنين وذلك لأن الشيء إذا كان مستنكراً مستقبحاً فمن أراد المبالغة في التنفير عنه عبر عنه بعبارات كثيرة ليصير توالي تلك العبارات سببا لوقوف العقل على ما فيه من قبح والقول بوجود إلهين قول مستقبح في العقول ، ولهذا المعنى لم يقل أحد من العقلاء بوجود إلهين

متساويين في الوجوب والقدم وصفات الكمال[١] ثم جاء القصر بإنما "إنما هو إله واحد" ليفيد تأكيد الوحدانية ، وأنها من الوضوح بحيث لا ينبغي أن يختلف عليها أحد ، وبقية الآيات ترى التأكيدات متلاحقة متوالية تفيد هذا المعنى وتؤكده .

ومن التجريد قوله تعالى : ﴿ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ النحل ٢٢

﴿فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾ الحج ٣٤ .

ففي آية النحل جاء ذكر الألوهية بالأسلوب الخبري المجرد من التأكيد "إلهكم إله واحد " وذلك لأنه من بداية السورة إلى هذه الآية ذكر لدلائل قدرة الله ووحدانيته فالسورة تفتتح بالتنبيه على إتيان القيامة والتعبير عن ذلك بالفعل الماضي " أتى " مكان المضارع " يأتي " " أتى أمر الله فلا تستعجلوه " لتحقق الوقوع ثم يخبر تعالى عن خلقه السموات والأرض " خلق السموات والأرض بالحق ... " وعن خلق الإنسان " خلق الإنسان من نطفة ... " وعن خلق الأنعام للانتفاع بها " والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ... والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينه ... " ثم يذكر تعالي نعمة إنزال الماء من السماء وإنبات الزرع والزيتون والرمان والأعناب ، وتسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم وتسخير البحر " لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا حلية تلبسونها .. " "وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم ... " كل هذه النعم المتواترة والآلاء المنسابة عليهم تفضي إلى نتيجة واحدة ، وهي أنه لا يستوي من يفعل هذا والأصنام العاجزة " أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ ثم يثبت لهم عدم الخلق بل هم يُخْلَقون، وهم أموات غير أحياء وما يشعرون أيان

---

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٩ / ٥٤٦ .

يبعثون ، وبعد هذه الأدلة الدامغة والحجج القاطعة يتقرر في نفوس العقلاء أن الله واحد لا شريك له ولا معبود معه ، فتقر النفوس وتهدأ الأفئدة إلى هذا الخبر المريح " إلهكم إله واحد..." [١] فلا يحتاج إلى تأكيد لأن الأدلة السابقة أقوى تأكيد على ذلك.

أما سورة الحج " فإلهكم إله واحد ... " فقد جاءت في سياق الحديث عن الحج ومنافعه وشعائره والأمر باجتناب عبادة الأوثان وبيان حال المشركين بالله تعالى من السوء ووجوب تعظيم شعائر الله تعالى فهي التي تجلب التقوى وتورث الاطمئنان [٢] ثم يعقب بتقرير الوحدانية " فإلهكم إله واحد " وبالأمر بالإسلام "فله أسلموا"[٣].

ومواطن تأكيد قضية الألوهية أكثر لأن المشركين والمعاندين كُثْر ، وقد غلظت قلوبهم ، وتحجرت أفئدتهم واستمرأو الضلال ، واستهوتهم الشياطين فناسبهم التأكيد تلو التأكيد والتحذير تلو التحذير أما تجريد الخبر من التأكيد ففيه ينزل المنكر منزلة غير المنكر لتواتر الأدلة وتعاضدها وتكاثرها أو لأن السياق يحتاجه هكذا، فيأتي الأسلوب مجرداً استناداً إلى هذه الدلائل، وهاتيك الحجج.

ــ أما لفظ " إله " عندما يطلق على الآلهة المدعاة فإنه يأتي على سبيل حكاية أقوال الكفرة المكذوبة ودعاواهم الفاسدة . كقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدًّ وَلاَ سُوَاعاً ... ﴾ نوح ٢٣

﴿ وَانطَلَقَ المَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ ﴾ ص٦

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا المَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ القصص٣٨

---

(١) راجع سورة النحل إلى آية ٢٢ .
(٢) راجع الآيات من سورة الحج ٢٧ ــ ٣٤ .
(٣) الظلال لسيد قطب ٣ / ٢٤٢٣ .

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا... ﴾ **الأحقاف ٢٢ .**

أو يرد عليهم ويهددهم بالعذاب الشديد كقوله تعالى :

﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ **الأنبياء ٢٩ .**

﴿ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ **الحجر ٩٦**

﴿ لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَّخْذُولاً ﴾ **الإسراء ٢٢**

﴿ وَلاَتَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَّدْحُوراً ﴾ **الإسراء٣٩**

﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الكَافِرُونَ ﴾ **المؤمنون ١١٧ .**

فآية الأنبياء تخبر عن الوعيد الشديد لمن يدعي صفة الألوهية وهو جهنم وآية الحجر تبهم الجزاء لمن يعبد إلها آخر غير الله تعالى " فسوف يعملون" وهذه الجملة تحمل كثيرا من معاني الوعيد فلم يقل يعلمون ماذا ؟ وإنما حذف المفعول للتعميم حتى يعم جميع أنواع العقاب والنكال ، وآية المؤمنون لم تعين جزاءً أيضا " فإنما حسابه عند ربه " كأنه قال : إن عقابه بلغ إلى حيث لا يقدر أحد على حسابه إلا الله تعالى[1] وآيتا الإسراء تجمع له أربع صفات وهو في جهنم وهي كونه مذموما مخذولا ملوما مدحورا وقد فرق الرازي بين هذه الصفات فقال:" ... الفرق بين المذموم وبين الملوم ، فالمذموم أن يذكر له أن الفعل الذي أقدم عليه قبيح ومنكر ثم يقال له لم فعلت مثل هذا الفعل؟ وما الذي حملك عليه؟ وهذا هو اللوم،

---

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي ١١ / ٤١٨ .

والمخذول : عبارة عن الضعيف ، وأما المدحور : فهو المطرود، والطرد : عبارة عن الاستخفاف والإهانة ، فكونه مخذولا عبارة عن ترك إعانته وتفويضه إلى نفسه، وكونه مدحوراً عبارة عن إهانته والاستخفاف به[١] وهكذا جمعوا كثيرا من صفات النقص والحقارة والإهانة جزاءً وفاقا؟!!

وهذا معناه : أن القوم كانوا في غاية الجهالة ، فلم يستعملوا عقولهم لأن كل الدلائل تؤكد كذبهم وبطلان دعاويهم وتقودهم إلى توحيد الله تعالى ولكن :

لقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادي

وهذه الأساليب تتحمل دراسة خاصة يُكْشَف فيها أسرار الأساليب ودقتها ، وأنواع العذاب التي ذكرت وكيفية الاستهزاءات التي وردت في الاستفهام أو الخبر وأسرار ذلك .

الفرق بين الأصنام والأوثان والتماثيل :

الأصنام والأوثان : هي هذه الأشياء المنحوتة المتخذة آلهة من دون الله تعالى ، وقد حاول العلماء أن يفرقوا بينها يقول ابن منظور : " الصنم معروف واحد الأصنام وهو الوثن قال ابن سيده : وهو ينحت من خشب ويصاغ من فضة ونحاس ، والجمع أصنام وهو ما اتخذ إلها من دون الله تعالى ، وقيل : هو ما كان له جسم أو صورة ، فإن لم يكن له جسم أو صورة فهو وثن ... وفي التنزيل ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴾[٢] قال ابن عرفه : ما اتخذوه من آلهة فكان غير صورة فهو وثن ، فإن كان له صورة فهو صنم ،

---

(١) السابق ١٠ / ٩٦ .
(٢) إبراهيم ٣٥ .

وقيل الفرق بين الوثن والصنم : أن الوثن ما كان له جثة من خشب أو حجر أو فضة ينحت ويعبد والصنم الصورة بلا جثة ، ومن العرب من جعل الوثن المنصوب صنما"[١].

وابن منظور بدأ حديثه وأنهاه بعدم التفريق بين الكلمتين فهو يقول: "الصنم معروف وهو واحد الأصنام وهو الوثن ، وفي حديثه عن كلمة "وثن" يقول: "الوثن : الصنم ما كان ، وقيل الصنم الصغير ... ومن العرب من لم يفرق بينهما وأطلقهما على المعنيين قال : وقد يطلق الوثن على غير الصورة "[٢].

وفي ثنايا حديثه يذكر الأقوال التي فرقت بينهما وهي تدور حول :

أولاً : الصنم ما كان له جسم أو صورة ، فإن لم يكن له جسم أو صورة فهو وثن .

ثانيا : الوثن ما كان له جثة من خشب أو حجر أو فضة ينحت ويعبد ، والصنم الصورة بلا جثة فهم يرون أن الصنم يكون منحوتا أو مصوراً ، أما إذا لم يكن منحوتا أو مصوراً بل كان حجرا فهو وثن يقول الكلبي[٣] : " إذا كان معمولا من خشب أو ذهب أو فضة على صورة إنسان فهو صنم، وإذا كان من حجارة فهو وثن".

أما التماثيل : فواحدها تمثال وهو اسم للشيء المصنوع مشبها بخلق الله وجمعه التماثيل ، وأصله من مثَّلتُ الشيء بالشيء إذا قدَّرته على قدره، ويكون تمثيل الشيء بالشيء تشبيها به ، واسم

---

(١) لسان العرب لابن منظور مادة " صنم " ٤ / ٢٥١١ .
(٢) السابق مادة " وثن " ٦ / ٤٧٦٥ .
(٣) الأصنام للكلبي ص٥٣ ، وانظر نظم الدرر للبقاعي ٤ / ١٩٠ .

ذلك الممثل تمثال[١] وعلى هذا فإن التماثيل تشمل الأصنام والأوثان سواء أكان اللفظان بمعنى واحد أم مختلفين ولذلك خاطب سيدنا إبراهيم قومه بقوله ﴿ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾[٢] وهم كانوا يعبدون أصناما وقد أطلق عليها اسم الأوثان كما سبق يقول الكلبي[٣] واسْتُهترت[٤] العرب في عبادة الأصنام فمنهم من اتخذ بيتا ومنهم من اتخذ صنما ، ومن لا يقدر عليه ولا على بناء البيت نصب حجراً أمام الحرم وأمام غيره مما استحسن ثم طاف به كطوافه بالبيت ، فإذا كانت تماثيل دعوها الأصنام والأوثان " .

---

(١) لسان العرب لابن منظور مادة " مثل " ٦ / ٤١٣٥ .
(٢) الأنبياء ٥٢ .
(٣) الأصنام للكلبي ص٣٣ .
(٤) في اللسان مادة هتر ٤٦١١/٦ " المهاترة : القول الذي ينقض بعضه بعضا ، وأَهْتِر الرجل فهو مُهْتَر إذا أولع بالقول في الشيء ، واسْتُهْتِر فلان فهو مستهتر إذا ذهب عقله فيه ، وانصرفت هممه إليه حتى أكثر القول فيه بالباطل " .

المبحث الثاني
استعمال ضمير العاقل مع الآلهة المدّعاة

سبق القول أن الآلهة المدعاة فيها من يعقل وفيها من لا يعقل وفيها من لا يوصف بأيهما كالملائكة ، وأن الأعم الأغلب من هذه الآلهة لا يعقل ، لأن العرب أولعوا بعبادة الأصنام واستمرؤوها . واتخذ كل واحد منهم له صنما ، والظاهرة التي تلفت النظر في الأساليب القرآنية في الحديث عن هذه الآلهة ــ وأقصد هنا الحديث عن الأصنام ــ أنها استعملت ضمير العاقل معها ، وهي جماد لا يعقل واستعمال ضمير العاقل مع غير العاقل قد يوحي بإرادة تشريفه ورفع منزلته وهذا ليس صحيحا ، لأن حديث القرآن عنها بلغ الغاية في الحط منها ، والتحقير من شأنها وتسفيه عابديها ، وهذا الاستعمال بالكثرة التي تؤكد اطراده وتشير إلى أن تحت هذه المغايرة كثيرٌ من الأسرار المقصودة ، والإيحاءات المرادة التي توجب تتبعها ، والبحث عنها حتى نصل إلى بعض هذه الأسرار ، لأن الإلمام بكلها عزيز بل متعذر ومن هذه النماذج :

١ ــ ما جاء في سورة البقرة في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ... ﴾ آية ١٦٥ .

٢ ــ ما جاء في سورة الأعراف في قوله تعالى : ﴿ ....فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ * وَإِن تَدْعُوَهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوَهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ * إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوَهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ * إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ * وَالَّذِينَ

تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ * وَإِن تَدْعُوَهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ ﴾ **الآيات ١٩١ ــ ١٩٨ .**

٣ ــ ما جاء في سورة الكهف في قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقاً ﴾ **الآية ٥٢ .**

٤ ــ ما جاء في سورة الأنبياء في قوله تعالى : ﴿ .... أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴾ **الآية ٢١ .**

٥ ــ ما جاء في سورة الأنبياء في قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلاَ هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ **الأنبياء٤٣.**

٦ ــ ما جاء في سورة الأنبياء في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ * قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ * وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلاَّ كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ... ﴾ **الآيات ٥١ ــ ٦٠ .**

٧ ــ ما جاء في سورة الحج في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ **الآية٧٣ .**

٨ ــ **ما جاء في سورة الفرقان في قوله تعالى :** ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلاَ يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَراً وَلاَ نَفْعاً وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلاَ حَيَاةً وَلاَ نُشُوراً ﴾ **الآية ٣ .**

٩ ــ **ما جاء في سورة سبأ في قوله تعالى :** ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ **الآية ٢٢ .**

أما الموطن الأول في آية البقرة ، فقد اختلف المفسرون في المراد بقوله " أندادا " فمنهم من قال إنها الأوثان التي اتخذوها آلهة لتقربهم إلى الله زلفى ، ورجوا عندها النفع والضر ، وهو قول أكثر المفسرين ، وعلى هذا الأصنام أنداداً بعضها لبعض أي : أمثال : ليس أنها أندادٌ لله أو المعنى : أنها أنداد لله تعالى بحسب ظنونهم الفاسدة[١] .

وقد رجح هذا القول كثير من المفسرين ، بل منهم من قال : " والمراد بالأنداد هنا وفي مواقعه من القرآن الأصنام لا الرؤساء كما قيل "[٢] وعلى هذا القول يكون قد عبر عن الأصنام بضمير العقلاء " يحبونهم " وكان الظاهر "يحبونها" وذكروا سر هذا الاستعمال فقالوا : لأنهم عاملوها معاملة العقلاء حيث عبدوها ورجوا منها النفع ، ودفع الضر وقصدوها بالمسائل ونذروا لها النذور وقربوا لها القرابين[٣] ولأن الأصنام لما اعتقدوا ألوهيتها فقد صارت عندهم جديرة بضمير

---

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٢ / ٦١٥ .
(٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور المجلد الأول الجزء الثاني ... / ٩٠ .
(٣) راجع حاشية الجمل ١ / ٣٢ ، ٤٢١/٢ .

العقلاء[١] وهذا السر هو الذي اعتمده المفسرون ، واتكأوا عليه وخرجوا الأساليب التي وردت عليه فهو في المقام الأول عندهم .

ومنهم من قال : إن المقصود بالأنداد السادة الذين كانوا يطيعونهم فيحلُّون لمكان طاعتهم ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله[٢] واستدلوا على هذا الرأي بوجوه الأول: ضمير العقلاء في "يحبونهم" فإنه يبعد أن يراد به الأصنام ، والثاني : أنه يبعد أنهم كانوا يحبون الأصنام محبتهم لله تعالى ، مع علمهم بأنها لا تضر ولا تنفع ، والثالث : أن الله ذكر بعد هذه الآية : " إذ تبرأ الذين اتبعوا ... " وذلك لا يليق إلا بالعقلاء [٣] وهذا الرأي قال به كثير من المفسرين أيضا لكن الوجوه التي استدلوا بها على أن المقصود بالأنداد هم الرؤساء لا تنهض دليلا على ذلك ، أما عن الوجه الأول وهو أن ضمير العقلاء في " يحبونهم " يبعد أن يراد به الأصنام ، فذلك لا يصح وقد أتى التعبير عن الأصنام في مواطن كثيرة في القرآن بضمير العقلاء وقد عُقد هذا المبحث لأجل هذا ، أما عن الوجه الثاني وهو " أنه يبعد أنهم كانوا يحبون الأصنام محبتهم لله تعالى مع علمهم بأنها لا تضر ولا تنفع " فإن رأس الآية " ومن الناس " يرد على ذلك حيث عبر بمن التبعيضية فالمقصود بعض الناس الذين يتخذون من دون الله أنداداً لا كلهم " ... فأحوال المشركين مختلفة فمنهم من يعبد الأنداد من الأصنام أو الجن أو الكواكب ويعترف بوجود الله ويسوي بين الأنداد وبينه تعالى " ويسميهم شركاء أو أبناء الله تعالى ومنهم من يجعل لله تعالى الإلهية الكبرى ويجعل الأنداد شفعاء إليه ، ومنهم من

---

(١) التحرير والتنوير المجلد الأول الجزء الثاني / ٩٠ .
(٢) راجع مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٢ / ٦١٦ .
(٣) راجع مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٢ / ٦١٦ وحاشية زاده ٤٧٤/١ .

يقتصر على عبادة الأنداد وينسى الله تعالى "[١] وهذا القسم الأخير هو المراد بقوله " ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله ، أما عن الوجه الثالث: "أن الله ذكر بعد ذلك " إذا تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا " وذلك لا يليق إلا بالعقلاء" فهذا أيضا مردود عليه ، لأن البراءة يوم القيامة تكون للعقلاء الذين عُبدوا من دون الله تعالى كما تبرأ سيدنا عيسى ممن عبدوه في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ ... ﴾[٢] وكما تبرأت الملائكة من عبدتها في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلاَئِكَةِ أَهَؤُلاء إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾[٣] وتكون لغير العقلاء ممن عُبدوا من دون الله تعالى كالأصنام والكواكب وغيرها ، ولا يمتنع أن يخلق الله فيهم عقلا ونطقا فيتبرءون ممن عبدوهم فتقسيم المخلوقات إلى عاقلة وغير عاقلة هذا في ميزان البشر ، أما في ميزان الله تعالى فجميع الخلائق عاقلة تسمع وتعقل وتُسْأل وتجيب بلسان فصيح حتى إن أبا حيان عندما عرض لقوله تعالى : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ﴾ عرض قولين لأهل السلف أحدهما : هم رؤساؤهم وقادتهم الذين اتبعوهم في أقوالهم وأفعالهم ، وثانيهما : هم الشياطين الذين كانوا يوسوسون ويرينهم الحسن قبيحا والقبيح حسنا ثم عقب قائلاً : " أو عام في كل متبوع وهو الذي يدل عليه ظاهر اللفظ " [٤] وهذا القول تدخل فيه الأصنام .

---

(١) التحرير والتنوير المجلد الأول الجزء الأول / ٩٠ .
(٢) المائدة ١١٧ .
(٣) سبأ ٤٠ ، ٤١ .
(٤) البحر المحيط لأبي حيان ٢/ ٨٥ .

كما لا يمتنع أن يكون لفظ الأنداد يشمل الاثنين الأصنام التي عُبدت من دون الله تعالى والرؤساء الذين اتبعوهم ويكون الأسلوب من قبيل التغليب حيث غلب العقلاء على غيرهم في الضمير في " يحبونهم " يقول أبو حيان : " ولفظ الناس عام والأحسن حمله على الطائفتين من أهل الكتاب وعبدة الأوثان ، فالأنداد باعتبار أهل الكتاب هم رؤساؤهم وأحبارهم اتبعوا ما رتبوه لهم من أمر أو نهي، وإن خالف أمر الله ونهيه ، والأنداد باعتبار عبادة الأوثان هم الأصنام اتخذوها آلهة وعبدوها من دون الله [١].

وهذا هو السر الثاني الذي ذكروه في استعمال ضمير العاقل مع الأصنام حيث خرجوه على التغليب وهو إعطاء الشيء حكم غيره ، وقيل : ترجيح أحد المغلوبين على الآخر وإطلاق لفظه عليها إجراءً للمختلفين مجرى المتفقين نحو : ﴿ وَكَانَتْ مِنَ القَانِتِينَ ﴾[٢] ، ﴿ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الغَابِرِينَ ﴾[٣] والأصل من القانتات والغابرات، فَغُلِّبَتْ الأنثى من الذكر بحكم التغليب[٤] يقول صاحب الظلال : " والازدواج في عقائد مشركي العرب بين الأصنام الظاهرة ، والرموز الباطنة هو ــ فيما نحسب ــ سبب مخاطبتهم هكذا عن هذه الآلهة مرة بضمير العاقل ، ملحوظا فيها ما وراء الأصنام من الرمز ، ومرة بالإشارة المباشرة إلى الأصنام ذاتها وأنها فاقدة للحياة والحركة ، وهي في مجموعها ظاهرة البطلان في منطق العقل البشري ذاته ، الذي يوقظه القرآن ويرفعه عن هذه الغفلة المذرية [٥].

---

(١) السابق ٢ / ٨٤ .
(٢) التحريم ١٢ .
(٣) الأعراف ٨٣ .
(٤) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١٠٤/٢ .
(٥) الظلال لسيد قطب ٣ / ١٤١٥ .

أما الموطن الثاني في آيات الأعراف فقد ذكرت الآيات بعض صفات الآلهة المدعاة ، وبينت عجزها وضعفها ، وفي ثنايا ذلك يستعمل ضمير العاقل مع الأصنام في قوله : " وهم يُخلقون " استعمل جمع العاقل بالواو والنون وضمير " هم " والمعنى : أتشركون الأصنام وهي لا تقدر على خلق شيء كما يخلق الله وهم يُخلقون : أي : يخلقهم الله تعالى ويوجدهم كما يوجدكم ، أو يكون معناه : وهم يُنحتون ويُصنعون ، فعبدتهم يخلقونهم وهم لا يقدرون على خلق شيء فهم أعجز من عبدتهم[١] فعلى هذا "هم" عائدة على الأصنام ، وقد عبر عنها بضمير العقلاء ، ويحتمل أن يكون "هم" عائد على ما عاد عليه ضمير الفاعل في " أيشركون " أي : وهؤلاء المشركون يُخلفون أي : كان يجب أن يعتبروا بأنهم مخلوقون فيجعلوا إلههم خالقهم لا من لا يخلق شيئاً [٢] وعلى هذا فالضمير " هم " عائد على المشركين وهم عقلاء فلا مشاحة في الأسلوب .

وفي قوله : ﴿ وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ واو الجماعة في " لا يستطيعون " وفي " ينصرون " عائدة على الأصنام والمراد: أن الأصنام لا تنصر من أطاعها ، ولا تنتصر ممن عصاها .

وفي قوله ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴾ الظاهر أن الخطاب في قوله : " وإن تدعوهم" للكفار وضمير النصب " هم " للأصنام والمعنى : وإن تدعوا آلهتكم إلى طلب هدى ورشاد كما تطلبونه من الله لا يتابعونكم على مرادكم ، ويجوز أن يكون الضمير للرسول والمؤمنين ، والمنصوب

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٥ / ٢٤٨ .
(٢) السابق .

للكفار أي : وإن تدعوا أنتم هؤلاء الكفار إلى الإيمان[١] ... لكن الزمخشري[٢] جعل الضمير راجعا إلى الأصنام فحسب ، بدليل قوله : " فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين " وهذا أولي لأن جميع الضمائر في الآيات راجعة إلى الأصنام ، وفي رجوع هذا الضمير فقط إلى المشركين تفريق للضمائر ، مع ما فيه من زيادة التقريع والتبكيت للمشركين ، وكما قالوا : والقرينة تصرف الضمائر المتماثلة إلى مصارفها [٣].

وفي قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوَهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ **عبر عن الأصنام بضمير "الذين" ولم يقل " التي " وقد كثر استعمال " الذين " مع الآلهة المدعاة كثرة تلفت النظر كقوله تعالى :** ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ **الأنعام ٥٦ .**

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾ الحج ٧٣ .

﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ فاطر ١٣

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ ﴾ فاطر ٤٠

---

(١) حاشية الجمل ٢٠ / ٢٢٠ .
(٢) الكشاف للزمخشري ١٣٧/٢ ، والبحر المحيط لأبي حيان ٢٤٩/٥ ، وروح المعاني للألوسي ٤٢٨/٦ .
(٣) حاشية الشهاب الخفاجي ٤٢١/٤ ، والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور مجلد ٧ جزء ٩٨/١٧ .

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ... ﴾ غافر ٦٦ [١].

والمراد بالذين تدعون من دون الله ، الأصنام فتعريفها بالموصول لتنبيه المخاطبين على خطأ رأيهم في دعائهم إياها من دون الله في حين هي ليست أهلا لذلك فهذا الموصول كالموصول في قول عبدة بن الطيب :

إن الذين ترونهم إخوانكم يشفي غليل صدورهم أن تصرعوا[٢]

كما أتى بضمير " هم " في قوله " فادعوهم " ولم يقل : فادعوها ، والواو في قوله : " فليستجيبوا " ولم يقل : فلتستجيب ، وقد تساءل الرازي : كيف ذكر ضمير العاقل مع غير الناس ؟ وأجاب بقوله : لما اعتقد عابدوها أنها تعقل وتميز ، فورد هذا اللفظ بناء على ما يعتقدونه ويتصورونه، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[٣] ، ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾[٤]... "[٥].

ــ والرازي نظَّر استعمال ضمير العقلاء مع الأصنام باستعماله مع الجمادات كالشمس والفلك وقالوا : إن المسوغ لهذا الاستعمال أنها وصفت بصفات العقلاء وهي السباحة وهذا هو السر الثالث المسوغ لاستعمال ضمير العقلاء مع غير العقلاء وهو وصف الأصنام بصفات العقلاء ،أو يقولون " .... أو لأنهم مختلطون بمن

---

(١) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقي ص٣٢٧ .

(٢) التحرير والتنوير مجلد ٤ جزء ٩/٢٢١ ، وشروح التلخيص ١/٣٠٧ دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ من دون .

(٣) سورة يس ٤٠ .

(٤) سورة يوسف ٤٠ .

(٥) مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٧ / ٤٠٠ .

عبد من العقلاء كالمسيح وعزير "[١] وهذا معناه : أن الخطاب شامل لجميع الآلهة التي اتخذت من دون الله تعالى ، وكان من بينها من يعقل كالمسيح وأمه وعزير فيكون الخطاب من قبيل التغليب أي : غلب من يعقل على من لا يعقل وقد سبقت الإشارة إليه .

كما أن قوله "ألهم أرجل يمشون...ألهم أيد يبطشون...أم لهم آذان يسمعون ... لا يستطيعون...ينصرون...وإن تدعوهم لا يسمعوا ... وتراهم ينظرون ... لا يبصرون" يستعمل فيه "هو" والواو والنون ويمشون ويبطشون ويسمعون ولا يستطيعون وينظرون ولا يبصرون " وكلها ضمائر للعاقل استعملت مع الأصنام .

وبالإضافة إلى ما سبق من أسرار هذا الاستعمال : فإن هذه الآلهة كانت محل احترامهم وتقديرهم ، وأوجبوا لها ما يجب للعقلاء وأكثر ، فكان هذا الاستعمال من قبيل الاستدراج مرة ، والاستهزاء والقدح في عقولهم وإقامة الحجة على أن هذه الآلهة وإن بلغت مرتبة العقلاء، وعوملت معاملتهم، فإنها لا تستوجب العبادة والتأليه لأن العقلاء لا يستوجبون ذلك ، فكيف بالأقل منزلة ، والأحط درجة ؟!!

أما الموطن الثالث في سورة الكهف : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقاً ﴾ الآية٥٢ فقد استعمل اسم الموصول " الذين " وضمير الجمع في قوله : فدعوهم " ... لهم ... " واو الجماعة في قوله : " فلم يستجيبوا " وكلها ضمائر عاقلة راجعة للأصنام .

---

(١) حاشية الجمل ٢ / ٢١٩ .

أما الموطن الرابع من الأنبياء فهو قوله : ﴿ ... أَمِ اتَّخَـذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴾ **فقد استعمل ضمير جمع المـذكر " هـم " والواو والنون "ينشرون" وهي منصوبة المحل على أنها صفة " آلهة " أي : ألهم آلهة لا يقدر على إحياء الموتى إلا هم وحدهم** [١] **، وهذا إنكار وتوبيخ لمن عبد هذه الآلهة العاجزة .**

أما الموطن الخامس من سورة الأنبياء فقوله : ﴿ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلاَ هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ **فقد عبـر عن الأصنام بضمير العاقل في قوله "لا يستطيعون نصر أنفسهم " فجمعها بالواو والنون وجعل لها أنفس ، وقوله " ولا هم منـا يصـحبون " راجع إلى الكفار لا إلى الآلهة كما أشار إليه الجلال ويحتمل رجوعه للأصنام أيضاً** [٢] **فيكون مما نحن فيه .**

أما الموطن السادس من سورة الأنبياء : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَتِي أَنتُمْ لَهَـا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ * قَالَ بَل رَّبُّكُـمْ رَبُّ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ * وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلاَّ كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ **وقد سبق الحديث عن هذه الآيات في الموطن الرابع ضمن الحديث عـن ورود لفظة الأصنام في القرآن الكريم**[٣]**.**

وقد عبر عن الأصنام بضمير غير العقلاء " لها "في قولـه "أنتم لها عابدون " وعبروا هم أيضا عنها بهذا الضمير في قـولهم "

---

(١) حاشية الشيخ زاده ٣ / ٣٤٤ .
(٢) حاشية الجمل مع تفسير الجلال المحلي عليه ٣ / ١٣٠ .
(٣) انظر هذا البحث ص .

بل وجدنا آباءنا لها عابدين " ثم عبر عنها بضمير غير العقلاء في قوله : " فطرهن " يقول الزمخشري : " الضمير في " فطرهن " للسموات والأرض أو للتماثيل وكونه للتماثيل أدخل في تضليلهم وأثبت في الاحتجاج عليهم " [١] وضمير الإناث هنا ليس خاصا بمن يعقل كما ظنه ابن عطية وجعله من استعمال العاقل مع غير العاقل فقال : " وقوله " فطرهن " عبارة عنها كأنها تعقل من حيث لها طاعة وانقياد ، وقد وصفت في مواضع بما يوصف به من يعقل " [٢].

أما الموطن السابع في سورة الحج " يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب " **نجد التعبير باسم الموصول "الذين" وبواو الجماعة في قوله : " لن يخلقوا ... ولو اجتمعوا ... لا يستنقذوه" وضمير الجمع في قوله : "يسلبهم " وكلها ضمائر عاقلة راجعة للأصنام .**

أما الموطن الثامن في سورة الفرقان : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلاَ يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَراًّ وَلاَ نَفْعاً وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلاَ حَيَاةً وَلاَ نُشُوراً ﴾ **تجد التعبير عن الأصنام بواو الجماعة في قوله : " لا يخلقون ... يخلقون ... ولا يملكون " وفي قوله " وهم " .**

أما الموطن التاسع في آية سبأ ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ **فقد عبر عن الأصنام باسم الموصول "**

---

(١) الكشاف للزمخشري ٢/٥٧٦ ، ومفاتيح الغيب للفخر الرازي ١١ / ١٤٣ .

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية ٤ / ٨٦ .

الذين " والواو والنون " لا يملكون" وضمير جمع المذكر " وما لهم " " منهم " لكن قوله " الذين زعمتم من دون الله " المقصود به الأصنام والملائكة[١] ويدخل معهم دخولا أولياً كل من عبد من دون الله تعالى. فيكون قد غلب العقلاء على غيرهم لشرفهم فهم أشرف منزلة، وأكثر نظراً وأتم تأملاً بما أودع الله فيهم من العقل الذي عليه مناط التكليف ، وقد تبرأ العقلاء من ادعاء الألوهية كسيدنا عيسى عليه السلام ، وتبرأ الملائكة وعندئذ يكون استعمال العاقل في هذه المواطن دحضًا لفكرة الألوهية المدعاة من أساسها .

وهذا سهو منه وقد تعقبه أبو حيان بقوله : " كأن ابن عطية تخيل أن "هن" من الضمائر التي تخص من يعقل من المؤنثات ، وليس كذلك ، بل هو لفظ مشترك بين من يعقل وما لا يعقل من المؤنث المجموع ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ﴾[٢] ، والضمير عائد على الأربعة الحرم "[٣].

ومع أن بعض مواطن التعبير في الآيات جاءت لغير العاقل مطردة مع حال الأصنام تحقيراً لأمرها وازدراءً من شأنها ، وحطاً من منزلتها ، ووصفاً وإخباراً عن حالها ، فقد جاء استعمال العاقل معها ليؤكد هذا الوصف ويطنب فيه لقصد التحقير والاستهزاء سواء أكان ذلك عن طريق الوصف أم عن طريق استعمال ضمير العاقل معها ، فمن الأول : إيقاع الكيد على الأصنام في قوله : " وتالله لأكيدن أصنامكم " ولما كان الكيد احتيالاً على الغير في ضرر لا يشعر به ، والأصنام جمادات لا تتضرر بالكسر ونحوه ، وأيضا ليست هي

---

(١) الكشاف للزمخشري ٣ / ٣٨٧ .
(٢) التوبة ٣٦ .
(٣) البحر المحيط لأبي حيان ٤٤٣/٧ .

مما يحتال في إيقاع الكسر عليها ، لأن الاحتيال يكون في حق من له شعور ، وإدراك ، أجابوا عن ذلك : بأنه بناء على زعمهم ، لأنهم كانوا يزعمون أن الأصنام لهن شعور وإدراك ، ويجوز عليهم التضرر ، أو المراد : لأكيدنكم في أصنامكم ، لأن ذلك الفعل قد أنزل الغم بهم [١] .

وقد جعله الشهاب من قبيل الاستعارة أو استعمالا له في لازمه ، لأن الكيد في الأصل احتيال في إيجاد ما يضر مع إظهار خلافه وهو يستلزم الاجتهاد فيه ، فتجوز به عنه هنا [٢] .

ومن الثاني : حيث عبر عنهم بضمير العاقل في قوله : "فجعلهم ... إلا كبيرا لهم " فـ"لهم" صفة لـ"كبيراً" والضمير يجوز أن يعود على الأصنام ،ويجوز أن يكون عائداً على عابديها [٣] وأيضا في قوله " يذكرهم " وفي قوله " بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون " فالضمائر في " كبيرهم ... فاسألوهم ... ينطقون " عاقلة وهي راجعة إلى الأصنام .

كما أنه يصح أن يعلل استعمال ضمير المذكر العاقل مع الأصنام على أن التذكير أخف من التأنيث ، وإنما يخرج التأنيث من التذكير كما يقول سيبويه : " واعلم أن المذكر أخف عليهم من المؤنث ، لأن المذكر أول وهو أشد تمكنا ، وإنما يخرج التأنيث من التذكير ، ألا ترى أن الشيء يقع على كل ما أخبر عنه من قبل أن

---

(١) راجع حاشية الجمل ١٣٣/٣ ، وحاشية زاده ٣٥٣/٣ .
(٢) حاشية الشهاب الخفاجي ٤٤٨/٦ .
(٣) حاشية الجمل ١٣٣/٣ .

يعلم أذكر هو أو أنثى ؟ والشيء ذكر فالتنوين علامة للأمكن عنـــدهم والأخف عليهم " [١] " .

وإنمـــا كان المؤنث بهذه المنزلة، ولـــم يكـــن كالمـــذكر لأن الأشيـــاء كلهـــا أصلها التذكير ثم تختص بعد ، فكل مؤنث شـــيء ، والشيء يذكر فالتذكير أول ، وهو أشد تمكنا كما أن النكرة هي أشـــد تمكنا من المعرفة " [٢].

وهذا هو السر الرابع من أسرار استعمال ضمير العاقل مـــع الأصنام .

---

(١) الكتاب لسيبويه ٢٢/١ تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ط أولى ــ دار الجيل ــ بيروت ــ من دون .

(٢) السابق ٢٢/٢ ، وانظر دراسات لأسلوب القرآن الكريم للدكتور / محمد عبد الخالق عضيمة القسم الثالـــث الجـــزء الرابـــع المجلـــد ١٩٨/١١ ــ دار الحديث ــ القاهرة ط سنة ١٤٢٥هـــ / ٢٠٠٤م .

المبحث الثالث
الأمثال المضروبة للآلهة المدعاة في القرآن

ضُربت للآلهة المُدَّعاة كثير من الأمثلة ، ومُثِّلت بالأشياء الضعيفة الحقيرة التي يتفق الجميع على ضعفها وعجزها ، وفي تمثيل الآلهة المدعاة بهذه الأشياء كشف وإيضاح لضعفها وحقارتها ، لأن التمثيل مما يكشف المعاني ويوضحها فهو بمنزلة التصوير والتشكيل لها ، ألا ترى كيف صُوِّر الشرك بالصور المشوهة ، وقد تتبعت المواطن التي احتوت على تمثيل الآلهة المدعاة فوجدتها في تسعة مواطن على النحو التالي :

١ ــ في سورة البقرة في قوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ الآية ١٧١ .

٢ ــ وفي سورة الأنعام في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ الآية : ٧١ .

٣ ــ وفي سورة الرعد في قوله تعالى : ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ ﴾ الآية : ١٤ .

٤ ــ في سورة النحل في قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِراً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ

لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ آيتا ٧٥ ، ٧٦ .

٥ ــ في سورة الحج في قوله تعالى : ﴿ حُنَفَاءَ للهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ الآية ٣١ .

٦ ــ في سورة الحج أيضاً في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ الآية:٧٣ .

٧ ــ في سورة العنكبوت في قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ العَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ البُيُوتِ لَبَيْتُ العَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ آيتا ٤١ ، ٤٢ .

٨ ــ في سورة الروم في قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ الآية:٢٧ .

٩ ــ في سورة الزمر في قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ الآية : ٢٩ .

والناظر في المواطن التسعة يجدها متحدة في بيان عجز وضعف الآلهة المدعاة وعدم منفعتها لعابديها ، ويوقن ويشهد بتوحيد الله تعالى وصدق رسول الله ﷺ .

وقبل تحليل هذه المواطن يلاحظ فى أساليبها ما يلي :

أولاً : كثرة الاستفهام الذى يحمل معنى الإنكار عليهم فى عبادة غير الله تعالى ، ونفي أن يستحق العبادة والتأليه غيره تعالى ، كقوله فى النحل : " ... هل يستوون ... هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل..."، وفى الروم : " هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم... " ، وفى الزمر : " هل يستويان مثلا ... " ، وفى الأنعام : "قل أندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ... " .

ثانياً : الشبيهات كلها مركبة تحمل معنى ضعف وعجز الآلهة المدعاة ، وعدم نفعها أو ضرها اللذين تستلزمهما الآلوهية الحقة ، وكلها تشبيهات حسية ضربت لبلادة فكرهم، وسفه عقولهم، ومكابرتهم فى أمر واضح وحقيقة جلية، إذ الدلائل شاهدة، والبراهين ناطقة ، وهي من الكثرة والقوة التى تجعل من له أدنى عقل أن يذعن ويوقن ويشهد بتوحيد الله تعالى وصدق رسوله ﷺ.

ثالثاً : تنوع الأسلوب وتغايره فى ضرب المثل ، فمرة يذكر الذين كفروا صراحة كما فى سورة البقرة ، ومرة يذكر من صفات الآلهة المدعاة عدم النفع وعدم الضر كما فى سورة الأنعام ، ومرة يبدأ بالإشارة إلى الخالق : " له دعوة الحق " ، ويذكر عدم منفعة الآلهة المدعاة فى شئ كما فى سورة الرعد ، ومرة يمثلها بعبد ضعيف عاجز ، ويمثل ذاته العلية ــ ولله المثل الأعلى ــ بمن هو قادر مالك ينفق كيف يشاء ، أو برجلين أحدهما ضعيف والآخر قوي مالك كما فى سورة النحل ، ومرة يبدأ المثل بنداء الناس جميعاً لأنهم مأمرون بتوحيده وترك عبادة غيره تعالى كما فى سورة الحج ، ومرة يذكرهم باسم الموصول : " والذين اتخذوا من دون الله أولياء ... " كما فى سورة العنكبوت ، ومرة يذَكِّرهم بأن هذا المثل واقع بينهم يرونه ويعيشونه ولا يستطيعون إنكاره ورفضه : " ضرب لكم

مثلاً من أنفسكم ... " كما فى سورة الروم ، ومرة يشـــبه الأصـــنام برجل فيه شركاء متشاكسون ويشبه ذاته العلية برجل سلماً لرجل كما فى سورة الزمر ، وهكذا تتوالى الأدلة وتتناصر على دحـــض فكـــرة ألوهية الأصنام لعدم استحقاقها لذلك لما تحمله من صفات تتنـــاقض وتتعارض مع صفات الإله الحق !! .

وإليك الحديث عن هذه المواطن مفصلا :

الموطن الأول

قوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ **لما حكى تعالى عن الكفار أنهم عند الدعاء إلى اتباع ما أنزل الله تركوا النظر والتدبر وأخلدوا إلى التقليد وقالوا : "بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا " ضرب لهم هذا المثل تنبيها للسامعين لهم أنهم إنما وقعوا فيه بسبب ترك الإصغاء وقلة الاهتمام بالدين ، فصيرَّهم من هذا الوجه بمنزلة الأنعام ، ومثل هذا المثل يزيد السامع معرفة بأحوال الكفار ، ويحقر إلى الكافر نفسه إذا سمع ذلك ، فيكون كسراً لقلبه ، وتضيقا لصدره حيث صيرَّه كالبهيمة فيكون في ذلك نهاية الزجر والردع لمن يسمعه عن أن يسلك مثل طريقه في التقليد[١] وبالنظر في الآية يتضح أنها تتضمن تشبيهين الأول في قوله :** ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً ﴾ **والثاني في قوله :** ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ .

أما عن التشبيه الأول فقد كثرت فيه التأويلات ولذا يقول السمين الحلبي:"اختلف الناس في هذه الآية اختلافا كثيرا، واضطربوا اضطرابا شديدا، وأنا بعون الله قد لخصت أقوالهم مهذبة"[٢].

---

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٦٣٥/٢ ، وانظر حاشية الشيخ زاده ١ / ٤٧٩ والبحر المحيط لأبي حيان ١٠٤/٢ .

(٢) الدر المصون للسمين الحلبي ٤٣٧/١ ، تحقيق الشيخ علي محمد معوض والشيخ أحمد عبد الموجود والدكتور جاد مخلوف جاد والدكتور زكريا عبد المجيد النوتي قدم له الدكتور أحمد محمد صبره ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ط أولى ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م ، وحاشية الجمل ١ / ١٣٧ .

وقد عرضت لهذا التشبيه الوارد في الآية من حيث احتمال التشبيه للإفراد والتركيب في رسالة الماجستير[١]، وهو تشبيه مركب يحتمل أن يقابل أجزاء المشبه به بأجزاء المشبه ، ويحتمل أن لا يقابل أما النوع الأول وهو مقابلة أجزاء المشبه بأجزاء المشبه به فقد ذكر له العلماء أربعة تأويلات :

الأول: أن يكون المثل مضروبا بتشبيه الكافر في دعائه الأصنام بالناعق على الغنم ويكون التقدير: ومثل الذين كفروا في دعائهم آلهتهم التي لا تفقه دعاءهم كمثل الناعق بغنمه لا ينتفع من نعيقه بشيء غير أنه في عناء ونداء وكذلك الكافر ليس له في دعائه الآلهة وعبادة الأوثان إلا العناء[٢] والزمخشري وإن ذكر هذا الرأي إلا أنه يعقب عليه بقوله:"إلا أن قوله"إلا دعاء ونداء" لا يساعد عليه، لأن الأصنام لا تسمع شيئاً[٣] والزمخشري إنما يقصد تمام التشبيه من كل جهة فكما أن المنعوق لا يسمع إلا دعاء ونداء فكذلك مدعو الكافر هو الصنم والصنم لا يسمع فضعف عنده هذا القول[٤].

وقد رد على ذلك أبو حيان قائلا : " التشبيه وقع في مطلق الدعاء لا في خصوصيات المدعو ، فشبه الكافر في دعائه الصنم بالناعق بالبهيمة لا في خصوصيات المنعوق به " ثم يقول : " وقال ابن زيد : إن الناعق هنا ليس المراد به الناعق بالبهائم من الضأن

---

(١) انظر : مباحث علم البيان في حاشية الجمل على تفسير جلال الدين السيوطي ص١٧٦ ، رسالة ماجستير للباحث . مخطوط بكلية اللغة العربية بالقاهرة ١٩٨٩م .
(٢) حاشية الجمل ١ / ١٣٧ بتصرف .
(٣) الكشاف للزمخشري ٣٢٨/١ .
(٤) انظر خصائص التشبيه في سورة البقرة ص٢٩٠ ، للدكتور/ إبراهيم على حسن داود ، ط أولى ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م ، مطبعة الأمانة .

أو غيرها وإنما المراد به الصائح في جوف الجبال فيجيبه منها صوت يقال له " الصدا " يجيبه ولا ينفعه فالمعنى ، بما لا يسمع منه الناعق إلا دعاءه ونداءه[١].

الثاني : أن يكون المثل مضروباً بتشبيه الكافر في دعاء الرسول له بالغنم المنعوق بها والتقدير : ومثل الذين كفروا في دعاء الرسول لهم إلى الله ــ تعالى ــ وعدم سماعهم إياه كمثل بهائم الراعي الذي ينعق عليها، فهو على حذف قيد من الأول وحذف مضاف من الثاني ، أو مثل الذين كفروا في عدم فهمهم عن الله وعن رسوله كمثل المنعوق به من البهائم التي لا تفقه من الأمر والنهي غير الصوت ، فيراد بالذي ينعق الذي ينعق به فيكون هذا من باب المقلوب عند العلماء كقولك : عرضت الحوض على الناقة وممن قال به أبو عبيدة والفراء[٢] وقد رفض أبو حيان هذا الرأي قائلا : " ... وينبغي أن ينزه القرآن عنه ــ أي القلب ــ لأن الصحيح أن القلب لا يكون إلا في الشعر ، أو إن جاء في الكلام فهو من القلة بحيث لا يقاس عليه " [٣].

الثالث : أن يكون المثل مضروباً لتشبيه الداعي للكافر بالناعق على الغنم ويكون التقدير : مثل داعي الذين كفروا كمثل الناعق بغنمه في كون الكافر لا يفهم مما يخاطبه به داعيه إلا دوى الصوت دون إلقاء فكر وذهن كما أن البهيمة كذلك فالكلام على حذف

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان ١٠٥/٢ .
(٢) انظر حاشية الجمل ١٣٧/١ وانظر خصائص التشبيه في سورة البقرة للدكتور/ إبراهيم علي حسن ، ص٢٩١ ، ومجاز القرآن لأبى عبيدة ٦٣/١ عارضه بأصوله وعلق عليه الدكتور : محمد فؤاد سزكين ــ مكتبة الخانجي القاهرة ــ من دون .
(٣) البحر المحيط لأبي حيان ٢ / ١٠٥ .

مضاف من الأول [١] فلا يكون من تشبيه الكافر بالناعق ولا بالمنعوق وإنما يكون من باب تشبيه داعي الكافر في دعائه إياه بالناعق بالبهائم في كون الكافر لا يفهم مما يخاطبه به داعيه إلا دوي الصوت دون إلقاء ذهن ولا فكر فهو شبيه بالناعق بالبهيمة التي لا تسمع من الناعق بها إلا دعاءه ونداءه ولا تفهم شيئا آخر[٢].

الرابع : أن يكون المثل مضروباً لتشبيه الداعي والكافر بالناعق والمنعوق به ، وهو اختيار سيبويه وتقديره عنده : مثلك يا محمد ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به[٣].

يقول الجمل بعد أن أورد رأي سيبويه : " واختلف الناس في فهم كلام سيبويه فقيل هو تفسير معنى وقيل هو تفسير إعراب فيكون في الكلام حذفان : حذف من الأول وهو حذف " داعيهم " وقد أثبت نظيره في الثاني ، وحذف من الثاني وهو حذف المنعوق به وقد أثبت نظيره في الأول ، فشبه داعي الكفار براعي الغنم في مخاطبته من لا يفهم عنه، وشبه الكفار بالغنم في كونهم لا يسمعون مما دعوا إليه إلا أصواتا لا يعرفون ما وراءها ، وفي هذا الوجه حذف كثير إذ فيه حذف معطوفين إذ التقدير الصناعي : ومثل الذين كفروا وداعيهم كمثل الذي ينعق والمنعوق به ، وقد ذهب إليه جماعة منهم أبو بكر بن طاهر وابن خروف والشلوبين قالوا : إن العرب تستحسن هذا وهو من بديع كلامها ومثله قوله ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ﴾[٤] تقديره : وأدخل يدك في جيبك تدخل وأخرجها تخرج فحذف تدخل لدلالة تخرج ، وحذف وأخرجها لدلالة وأدخل"[٥].

---

(١) انظر حاشية الجمل ١ / ١٣٧ .
(٢) البحر المحيط لأبي حيان ٢ / ١٠٦ .
(٣) حاشية الجمل ١٣٧/١ ، والكتاب لسيبويه ٢١٢/١ .
(٤) سورة النحل آية ١٢ .
(٥) انظر حاشية الجمل ١٣٧/١ ، وخصائص التشبيه في سورة البقرة ص٢٩٢ ، والبحر المحيط لأبي حيان ١٠٥/٢ .

وهذه الآراء التي ذكرها العلماء في هذا التشبيه إنما هي على القول بأن الآية من قبيل تشبيه المفرد بالمفرد يقول الشهاب ومعنى كونه تشبيها مفرقا "أن الداعي بمنزلة الراعي ، والكفرة بمنزلة الغنم المنعوق بها، ودعاء الكفرة بمنزلة صياح الناعق"(١).

أما احتمال النوع الثاني : وهو تشبيه الجملة بالجملة أو " المركب التمثيلي " فقد قال عنه الجمل : " أما إذا كان التشبيه من باب تشبيه جملة بجملة فلا ينظر في ذلك إلى مقابلة الألفاظ المفردة بل ينظر إلى المعنى(٢) ، وذلك أن يقال: مثل الكفار لانهماكهم في التقليد لا يلقون أذهانهم إلى ما يتلى عليهم .. ولا يتأملون فيما يقرر معهم بالبهائم التي ينعق عليها فتسمع الصوت ولا تعرف مغزاه وتحس بالنداء ولا تفهم معناه فيكون قد شبه حال هذا الداعي من دعاه في أنهم يسمعون قولا ولا يفهمونه بمنزلة الراعي الصائح في غنمه (٣) أو يقال : مثلهم في اتباعهم آباءهم وتقليدهم لهم كمثل البهائم التي لا تسمع إلا ظاهر الصوت ولا تفهم ما تحته فكذلك هؤلاء يتبعونهم على ظاهر حالهم ولا يفقهون أهم على حق أم باطل ؟ فيكون قد شبه حالهم في إتباع آبائهم بحال البهائم كما أنها لا تتبع إلا ظاهر النداء كذلك هؤلاء لا يتبعون إلا ظاهر الآباء(٤).

وبعد أن يعرض الشهاب الخفاجي احتمال الوجهين من تركيب وإفراد في الآية يختار التركيب على الإفراد فيقول : " وهذا وإن كان يحتمل التركيب والتفريق إلا أن الأول أولى(٥) وهو الحق لأن التركيب

---

(١) انظر حاشية الشهاب ٢/٤٤٤ .
(٢) حاشية الجمل ١ / ١٣٧ .
(٣) حاشية الشهاب الخفاجي ٢ / ٢٦٧ .
(٤) راجع الكشاف للزمخشري ١ / ٣٢٨ ، وحاشية الشهاب الخفاجي ٢ / ٤٤٤ .
(٥) حاشية الشهاب الخفاجي ٢ / ٤٤٤ .

إنما جيء به ليؤدي الصورة المركبة مقترنة بما تحمله من المعاني المتصلة به راسما صورة الداعي أقواما إلى الله وهم عنه معرضون ، وصورة حالهم من الخسة والبلاهة بحال البهائم التي لا تسمع إلا دوى الصوت ممن يرعاها وهي تتم وتحسن بإبرازها في معرض التشبيه المركب لا المفرق .

أما التشبيه الثاني وهو قوله : " صم بكم عمي فهم لا يرجعون " فإن النحاة يقدرونه بقولهم : هم صم ، هم بكم ، هم عمي ، على إضمار مبتدأ ، وهي أخبار متباينة لفظا ومعنى ، لكنها في معنى خبر واحد لأن مآلها إلى عدم قبول الحق مع كونهم سُمَّع الآذان فصحاء الألسن ، بُصراء الأعين ، فليس المراد نفي الحواس الظاهرة[١] وبتقدير المبتدأ الواقع مشبها يكون الأسلوب من قبيل التشبيه البليغ الذي حذف فيه الوجه والأداة يقول الزمخشري : " هل يسمى ما في الآية استعارة ؟ قلت : مختلف فيه والمحققون على تسميته تشبيا بليغا لا استعارة ، لأن المستعار له مذكور وهم المنافقون ... "[٢] ويمكنك أن تتمثل مدى التطابق بين المشبه والمشبه به إذا حذفت الأداة فالتطابق يسري بين الطرفين إلى حد فناء أحدهما في الآخر ، وامتزاجه به ، فلا تكاد ترى شيئين بينهما وجوه اتفاق ووجوه اختلاف ، وإنما ترى شيئا واحدا لا مجال للتفاوت فيه [٣] بينما يرى بعض البلاغيين أن التشبيه البليغ هو : ما كان وجه الشبه فيه بعيدا غريبا وليس هو ما سقطت أداته ووجهه ، ذلك لأن مرجع الجودة في التشبيهات إلى أمور كثيرة من أظهرها

---

(١) راجع تفسير السيوطي ، وحاشية الجمل عليه ١ / ٢٢ .
(٢) الكشاف للزمخشري ١ / ٢٠٤ .
(٣) انظر القرآن إعجازه وبلاغته للدكتور عبد القادر حسين ص١٤٥ مطبعة الأمانة،من دون.

غرابة الوجه ، وقد يُعين حذف الوجه والأداة على الجودة في التشبيه ولكن الأساس في بلاغة التشبيه هو دقة التعبير ، وإصابة الغرض ، وقد يكون ذكر الوجه والأداة ضروريا لتحقيق الغرض من التشبيه ... والخلاصة أنه ليس كل تشبيه يصلح فيه حذف الأداة والوجه ، فليس دائما حذفها أبلغ من ذكرها ، ومما يذكر هنا أن أكثر تشبيهات القرآن مذكورة الأداة ، والقرآن هو الحجة في البلاغة والمرجع"(١).

وبالإضافة إلى ما في هذا التشبيه من تسفيهٍ لعقول الذين يعبدون غير الله ويتصورون منها نفعًا أو دفع ضر وهي أحط منزلة وأدنى درجة من البهائم فالبهائم تسمع وهي لا تسمع .. فإن الأسلوب جاء مليئا بالعناصر الأسلوبية التي تضيف إلى هذا المعنى وتثريه وتقويه فقد أضيف المثل إلى الذين كفروا وفيه دلالة على أنهم كفروا النعمة وغطوا شمس التوحيد في قلوبهم بأفكارهم السقيمة وآرائهم العقيمة ، وتوجهاتهم المجحفة ، ثم هذا التشبيه الذي يدل على عدم الفائدة من وراء عبادتهم لهذه الأصنام التي بلغت الغاية في العجز والضعف بعدم السمع وعدم النطق وعدم العقل وعدم الضر وعدم النفع ... وقد جيء في هذا التشبيه بمفردة خاصة لم تأت في القرآن الكريم إلا في هذا الموطن (٢) وهي لفظة " ينعق "

---

(١) انظر : عز الدين بن عبد السلام وجهوده في البحث البلاغي للدكتور / عبد الحميد أحمد محمد على ص١٢٧ ط أولى ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م مطبعة السعادة وانظر أسرار البيان للدكتور / على محمد حسن العماري ص٨٦ ، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .

(٢) راجع المعجم المفهرس للألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقي ص٨٧٨ .

وهي بمعنى الصياح والزجر[١] وهي متلائمة مع سياق الآيات قبلها التي تدعو إلى توحيد الله تعالى وعدم التفريق بين أحد من رسله ... ثم الإخبار بلعنة الكفار وخلودهم في النار وعدم التخفيف عنهم ثم معاودة الحديث عن توحيد الله تعالى : ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ وذكر الدلائل على أحقيته تعالى بالتوحيد ومع ذلك فإن بعض الناس يتخذ من دونه أنداداً ثم بعرض مشهد من مشاهد يوم القيامة حيث تبرأ الأتباع من المتبوعين لشدة العذاب وتقطع الأسباب ثم ينهاهم عن اتباع الشيطان لعداوته الشديدة لهم فهو لا يأمرهم إلا بالسوء والفحشاء وبعد هذا كله مازالوا يُصِرُّون على العناد فيفضلون اتباع آبائهم الذين لا يعقلون شيئا ولا يهتدون على اتباع ما أنزل الله[٢] . ثم يأتي هذا التشبيه حلقة في الردع والزجر والتخويف متفرداً في مفرداته حتى ينفردوا بهذا الوصف الذي يليق بهم ، ثم يضيف لوصفهم هذا ما وصفه للمنافقين في أول السورة "صم بكم عمي فهم لا يرجعون "[٣] لكنه يتخير وصفهم هنا بعدم العقل لأنه المناسب لحالهم ، إذ وصف به آباؤهم قبلهم ، ولو كان عندهم أدنى ذرة من عقل لآمنوا بالله وصدقوا برسوله ﷺ.

---

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب ص٥٠١ ، ولسان العرب لابن منظور مادة "نعق"٦ / ٤٤٧٦ .
(٢) راجع الآيات ١٣٥ ــ ١٧٠ من سورة البقرة .
(٣) البقرة الآية ١٨ .

الموطن الثاني

في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ العَالَمِينَ ﴾ **الأنعام الآية : ٧١ .**

الآيات السابقة على هذه الآية تقرر أن غير الله لا يملك شيئا، والمشركون يعلمون أن كل ما سوى الله لا ينفع ولا يضر وأقامت الأدلة على ذلك[١] فكان قوله : "قل أندعوا... " في غاية التبكيت لهم والإنكار على اتخاذهم آلهة غير الله تعالى ، ومقصود هذه الآية الرد على عبدة الأصنام ، فقد كان المشركون يحاولون ارتداد بعض قرابتهم ، أو من لهم بهم صلة ... وعن السدى أن المشركين قالوا للمؤمنين ، اتبعوا سبيلنا ، واتركوا دين محمد ﷺ فقال تعالى: "قل أندعو ... "[٢].

وهذه الآية مؤكدة لقوله تعالى في هذه السورة : " قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ **" [٣] ، وهي استئناف ابتدائي لتأييس المشركين من ارتداد بعض المسلمين عن الدين... "[٤].**

وقد بدأت الآية بالأمر للرسول ﷺ " قل " ، والاستفهام : " أندعو من دون الله" الذي يحمل معنى النفي والإنكار رداً على من عبدوا غير الله تعالى ، وفي الآية تغليب إذ لا يتصور الرد على العقب

---

(١) الآيات ٦٠ ــ ٧٠ والسورة كلها تشير إلى ذلك .
(٢) راجع : مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٣٦٨/٦ ، وروح المعاني للألوسي ٣٩٦/٥ ، والتحرير والتنوير ٣٢ جـ٧ / ٢٩٩ .
(٣) مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٦ / ٣٦٨ .
(٤) التحرير والتنوير / ٣٠٠ .

المراد به الرجوع إلى الشرك منه ﷺ والمعنى : أيليق بنا معشر المسلمين ذلك [١].

والمراد بـ" ما لا ينفعنا ولا يضرنا " الأصنام فهي حجارة مشاهد عدم نفعها وعجزها عن الضر ، والمعبود إذا لم ينفع ويضر فلا يستحق العبادة ، وهي جملة تزيل عن الأصنام كل خير ، وتصفها بكل ضعف وعجز ، ورتب عليها قوله " ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله " .

وقوله : " ونرد على أعقابنا " عطف على " ندعوا ... " فهو داخل في حيز الإنكار والنفي أي : ونرد إلى الشرك بعد الإسلام [٢] وبني الفعل " نرد " للمفعول لأن المنكر الرد نفسه فالتركيز عليه وإليه القصد ، والتعبير عن الرجوع إلى الشرك بالرد على الأعقاب لزيادة تقبيحه بتصويره بصورة ما هو علم في القبح ، مع ما فيه من الإشارة إلى كون الشرك حالة قد تركت ونبذت وراء الظهر وإيثار نرد على نرتد لتوجيه الإنكار إلى الارتداد برد الغير تصريحا بمخالفة المضلين ، وقطعا لأطماعهم الفارغة ، وإيذانا بأن الارتداد من غير راد، وليس في حيز الاحتمال ليحتاج إلى نفيه وإنكاره [٣].

وهو تمثيل حال المرتد إلى الشرك بعد أن أسلم بحال من خرج في مُهِمٍّ فرجع على عقبيه ولم يقض ما خرج له ، وهذا أبلغ

---

(١) روح المعاني للألوسي ٣٩٦/٥ ، وحاشية الشهاب الخفاجي ١٢٨/٤ .
(٢) تفسير أبي السعود ٢٣٠/٢ ، وحاشية الجمل ٤٦/٢ .
(٣) تفسير أبي السعود ٢٣٠/٢ ، وروح المعاني للألوسي ٣٩٧/٥ ، ونظم الدرر ٦٥٥/٢ .

في تمثيل سوء الحالة من أن يقال : رجع إلى الكفر بعد الإيمان[١] . وجعلها الشهاب [٢] كناية عن الذهاب من غير رؤية موضع القدم ، وهو ذهاب بلا علم بخلاف الذهاب مع الإقبال . وبعضهم[٣] جعلها من قبيل التشبيه : وذلك أن المردود على العقب هو أن يكون الإنسان يمشي قُدُما ، وهي المشية الجيدة السَّجَح ــ السهلة الحسنة ــ فَيُرَدُّ بمشي القهقري ، وهي المشية الدنية ، فاستعمل المثل بها فيمن رجع من خير إلى شر ، ووقعت في هذه الآية في تمثيل الراجع من الهدى إلى عبادة الأصنام ".

ومشهد الذي يرجع إلى القهقري مرتداً عن دين الله وحيرته في التية بلا اتجاه مشهد مذري بغيض لا تحبه النفس ولا تتمناه [٤] وقوله : " بعد إذ هدانا الله" ..متعلق بـ" نرد " مسوق لتأكيد النكير لا لتحقيق معنى الرد وتصويره[٥] وفيه بيان فضل الله عليهم بإسناد الهداية إليه تعالى ، والاعتراف بما هم فيه من نعمة الهداية الوارفة الظلال ، وهو قيد معتبر في التشبيه يؤكد أنهم لن يدعوا من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم . ولن يرجعوا إلى الكفر بعد أن ذاقوا حلاوة الإيمان.

وقوله : " كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى " تمثيل آخر ولكنه ارتقى بتمثيل حالهم لو فرض رجوعهم على أعقابهم بتمثيل آخر أدق بقوله : " كالذي

---

(١) التحرير والتنوير م٣ جـ٧ / ٣٠٠ ، ومفاتيح الغيب للفخر الرازي ٦ / ٣٦٨ .
(٢) حاشية الشهاب الخفاجي ٤ / ١٢٨ .
(٣) المحرر الوجيز لابن عطيه ٣٠٦/٢ ، والبحر المحيط لأبي حيان ٤ / ٥٥١ .
(٤) راجع الظلال لسيد قطب ١١٣١/٢ .
(٥) تفسير أبي السعود ٢٣٠/٢ .

استهوته الشياطين " وهو تشبيه بهيئة متخيلة مبنية على اعتقاد المخاطبين في أحوال الممسوسين[١] والكاف إما أن تكون نعتا لمصدر محذوف أي : نرد رداً مثل رد الذي ... أو في محل نصب على الحال من مرفوع " نرد " أي نرد مشبهين الذي استهوته الشياطين[٢].

وقد وُصف هذا الإنسان الذي استهوته الشياطين بثلاث صفات ، الأولى : قوله : " استهوته الشياطين في الأرض " ولفظ " استهوته " مصور بذاته لمدلوله وهو إما أن يكون مشتقا من الهَوِىّ في الأرض وهو النزول من الموضع العالي إلى الوهدة السافلة العميقة في قعر الأرض فشبه الله تعالى حال هذا الضال به وهو كقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ الحج ٣١ ، وهَوى الإنسان من المكان العالي إلى الوهدة العميقة المظلمة يكون في غاية الاضطراب والضعف والدهشة أو يكون مشتقاً من اتباع الهوى والميل ، ومن كان كذلك فقد بلغ النهاية في الحيرة ، والقول الأول أولى لأنه أكمل في الدلالة على الدهشة والضعف [٣] ولكن جُل المفسرين رجحوا الوجه الثاني وهو أن يكون قوله "استهوته" استفعلته من قول القائل هَوِىَ فلان إلى كذا يهوى إليه ومنه : ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ... ﴾ إبراهيم ٣٧ [٤].

---

(١) التحرير والتنوير م٣ جـ٧ / ٣٠٠ .
(٢) الدر المصون للسمين الحلبي ٩٣/٣ .
(٣) مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٣٦٨/٦ .
(٤) راجع تفسير البيضاوي وحاشية الشهاب عليه ١٢٨/٤ ، وجامع البيان للطبري ٢٤٧/٧ ، والمحرر الوجيز لابن عطية ٣٠٧/٢ ، وروح المعاني للألوسي ٣٩٨/٥ .

ويشير الرازي إلى حسن التمثيل فيقول : " واعلم أن هذا المثل في غاية الحسن ، وذلك لأن الذي يهوى من المكان العالي ــ على ما رجحه ــ إلى الوهدة العميقة يهوى إليها مع الاستدارة على نفسه لأن الحجر حال نزوله من الأعلى إلى الأسفل ينزل على الاستدارة ، وذلك يوجب كمال التردد والتحير وأيضا فعند نزوله لا يعرف أنه يسقط على موضع يزداد بلاؤه بسبب سقوطه عليه أو يقل ، فإذا اعتبرت مجموع هذه الأحوال علمت أنك لا تجد مثالا للمتحير المتردد الخائف أحسن ولا أكمل من هذا المثال " (١).

وحسن التشبيه وروعته لا يختلف عليها أحد ، ومن يختلف على تشبيهات نزلت من لدن حكيم خبير كان كمن ينكر الشمس في رابعة النهار:

ما ضَرَّ شمس الضحى في الأفق طالعة ∴ أن لا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

أو المذكوم ينكر رائحة الورود ، وشذاها الندى :

وما ضَرَّ الورود وما عليها ∴ إذ المزكوم لم يطعم شذاها

أو الغلام الذي يرمي بحجر في اليمِّ :

ما يضر البحر أمسى زاخرا ∴ أن رمى فيه غلام بحجر !!

ومع أن الرازي حاول أن يوضح وجه التشبيه ويبين مدى مطابقته إلا أن أبا حيان(٢) عقب عليه بقوله : " وهو كلام تكثير لا طائل تحته " ، ولست مع أبى حيان فى رأيه إذ الرازي حاول أن

---

(١) تفسير مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٦ / ٣٦٨ .
(٢) البحر المحيط لأبي حيان ٥٥٢/٤ .

يغوص فى أعماق التشبيه ، ويقف على دقة المشابهة بين الطرفين ، ومدى إصابة التشبيه وروعته .

وفاعل استهوته "الشياطين" ومدلوله مرعب مخيف إذ يحمل معنى البعد والطرد، وحتى يكتمل مشهد الرعب جاء جمعا لا مفردا .

الثاني : قوله " حيران " وهو حال من الهاء في "استهوته" أو من "الذي" أي: تائها ضالا لا يهتدي لوجهه ولا يدرك كيف يسلك ، وتطلق مجازا على التردد في الأمر بحيث لا يعلم مخرجه [١] وهي صفة تجسد الحيرة كاملة في شخصية هذا المتردد بحيث لا يدري أي طريق يقتفي أو أي وجهة يتجه ، فهو غير متزن في أقواله متخبط في أفعاله يخبط خبط عشواء ، ومع كل هذا فلا يتبع أصحابه الذين يدعونه إلى الهدى .

الثالث : قوله : " له أصحاب يدعونه إلى الهدى " وهي جملة في محل النصب على أنها صفة لحيران أو حال من الضمير فيه أو مستأنفة سيقت لبيان حاله[٢] ،وقوله : " له أصحاب " أي : له أصحاب مؤمنون يدعونه للرجوع إلى الهدى ، ويحتمل له أصحاب من الشياطين يدعونه إلى الهدى بزعمهم ، ويثبتون من ارتد عن الإسلام على ارتداده ... وفي مصحف عبد الله " إلى الهدى بينا " وهذا يؤيد من تأول أن الأصحاب مؤمنون بدعوته إلى الهدى الحقيقي[٣].

---

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٣٦٨/٦ ، والتحرير والتنوير م٣ جـ٧ / ٣٠٢ .
(٢) تفسير أبي السعود ٢ / ٢٣١ .
(٣) راجع المحرر الوجيز لابن عطية ٢ / ٣٠٧ .

وهذه الصفة فيها دلالة على أنه ارتد عن الإسلام وهو عالم به مدرك أحقيته وصدق من جاء به لكنه ارتد عنادا وجحداً مع توفير وسائل الهداية بدعوته إلى الإسلام وتعريفه بفضائله ، وهو أمر غاية في الخسة والغباء .

وإيثار لفظ " الهدى " هنا لما فيه من المناسبة للحالة المشبهة ففي هذا اللفظ تجريد للتمثيلية ... ولذلك كان لتعقيبه بقوله : " قل إن هدى الله هو الهدى" وقع بديع ، وجوَّز الكشاف أن يكون الهدى مستعاراً للطريق المستقيم(١) وقوله: " ائتنا " بيان لـ" يدعونه إلى الهدى " ولذلك فصلت عما قبلها .

وهذه الأوصاف الثلاثة المعتبرة في جانب المشبه به معتبرة في جانب المشبه الذي استحسن طريق الشرك .(٢) حتى تكتمل صورته وتتحد معالمها ، ولذا فإن المشبه به يفوح منه رائحة التردد وعدم الاستقرار والقلق ، وتشتت الفكر وتبلد المشاعر والأحاسيس " وقد شبهت بهذا التمثيل العجيب حالة من فرض ارتداده إلى ضلالة الشرك بعد هدى الإسلام لدعوة المشركين إياه وتركه أصحابه المسلمين الذين يصدون عنه بحال الذي فسد عقله باستهواء الشياطين والجن فتاه في الأرض بعد أن كان عاقلا عارفا بمسالكها وترك رفقته العقلاء الذين يدعونه إلى موافقتهم(٣) وهذا التركيب البديع صالح للتفكيك بأن يشبه كل جزء من أجزاء الهيئة المشبهة بجزء من أجزاء الهيئة المشبهة بها بأن يشبه الارتداد بعد الإيمان بذهاب عقل المجنون ، ويشبه الكفر بالهيام في الأرض ، ويشبه المشركون الذين دعوهم إلى الارتداد بالشياطين ، وتشبه دعوة الله

---

(١) التحرير والتنوير م٣جـ٧ /٣٠٢،والكشاف للزمخشري٢/٢٨ .
(٢) حاشية زاده ٢ / ١٧٧ .
(٣) التحرير والتنوير م٣ جـ٧ / ٣٠٢ .

للناس للإيمان ونزول الملائكة بوحيه بالأصحاب الذين يدعون إلى الهدى[١].

وهذا التفكيك يدل على إصابة التمثيل وحسنه إذ قد روعي اتصال جزئيات الصورة وتناسقها وتلاؤمها كما أن عدم تفكيكها ترسم مشهدا متكاملا مصورا حالة المرتد عن الإسلام الذي ذاق جمالياته ، وتشربت روحه أحكامه ، وأدرك أسراره ، ثم ارتد عنه وترك هذا الخير وتلك الفضائل إلى ماديات ممجوجه ، قصارى أمرها أن تكسو الجسد حُلَّة ولكنها تترك الروح خواء يقول الشيخ سيد قطب ــ رحمه الله ــ " إنه مشهد حي شاخص متحرك للضلالة والحيرة التي تنتاب من يشرك بعد التوحيد ، ومن يتوزع قلبه بين الإله الواحد ، والآلهة المتعددة من العبيد ، ويتفرق إحساسه بين الهدى والضلال فيذهب في التيه إنه مشهد ذلك المخلوق التعيس : " الذي استهوته الشياطين في الأرض حيران ... إنه العذاب النفسي يرتسم ويتحرك حتى ليكاد يحس ويلمس من خلال التعبير " [٢] ثم يخبر عن مشاهدته ذلك النموذج بعد أن كان يتصوره من خلال الآيات فيقول : " ولقد كنت أتصور هذا المشهد وما يفيض به من عذاب الحيرة والتأرجح والقلقلة كلما قرأت هذا النص ، ولكن مجرد تصور، حتى رأيت حالات حقيقية، يتمثل فيها هذا الموقف، ويفيض فيها هذا العذاب حالات ناس عرفوا دين الله وذاقوه ــ أيا كانت درجة هذه المعرفة وهذا التذوق ــ ثم ارتدوا عنه إلى عبادة الآلهة الزائفة، تحت قهر الخوف والطمع، ثم إذا هم في هذا البؤس المرير، وعندئذ عرفت ماذا تعني هذه الحالة، وماذا يعني هذا التعبير" [٣].

---

(١) السابق .
(٢) الظلال لسيد قطب ٢ / ١١٣١ .
(٣) السابق .

إن الشيخ تصور هذا المشهد كما تحكيه الآيات ورأى الحقيقة في الواقع المعاش ، ولكن الصورة هذه الواضحة المعالم ، المحددة القسمات التي تجسد هذه الحالة شاخصة متحركة لا تقل أثراً عن الحقيقة في الواقع المعاش ، وقد صورها القرآن في مشهد آخر رسم فيه صورة المرتد وحسرته وندمه في قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴾ الفرقان ٢٧ ــ ٢٩ فوصف الذي ارتد عن الإسلام بـ"الظالم" وصوره بالعاضِّ على يديه من شدة الندم ، ونداؤه الويل أن لم يتبع الرسول ، ويكرره أن اتبع من صدَّه عن الإسلام وكان سببا في ارتداده ، ولم يسمه إهانة وتحقيراً له ، واعترافه بضلاله والتأكيد عليه ، وانحرافه عن الطريق القويم والسراط المستقيم ، وقد عرضت لهذه الآية ضمن سياقها فهي في مطلع مشهد عذاب للمكذبين بيوم البعث بما أغنى عن إعادته.(١)

والتشبيه منفي لا مثبت لأنه في حيز النفي أي : لا ينبغي لنا ولا يمكن أن نعبد غير الله بعد أن هدانا ، لأنا لو فعلنا ذلك كنا مثل من حيرته الشياطين (٢).

كما أن الصفات الثلاث جمل خبرية مجردة من التأكيد ، لأن أمثال هذه الصفات متقررة متحققة فيه وهي من الوضوح فيه وفيمن هو على شاكلته بحيث لا تحتاج إلى مؤكد .

والتركيب من قبيل تشبيه المعقول بالمحسوس لأن الارتداد عن الإسلام شيء معنوي والذي استهوته الشياطين في الأرض

---

(١) انظر نداء غير العاقل في القرآن الكريم للباحث ص٨٧ ط أولى مطبعة الأمانة ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م .

(٢) حاشية الجمل ٤٦/٢ .

حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا" صورة محسوسة حقيقية، وقد جاءت هذه الصورة على أصل التشبيه وهو أن ينقلك من الخفاء إلى الوضوح ومن المعنوي إلى الحسي وهذا ما يتحقق في صورة تشبيه المعقول بالمحسوس ، حتى تتضح صورة هذا المرتد وتبرز واضحة جلية .

وبعد رسم هذه الصورة القلقة المضطربة للمرتد عن الإسلام يأتي قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى ﴾ والجملة وقعت موقعها وناسبت سابقتها ولاحقتها ولاءمت ظرفها وكما يقول صاحب الظلال[١] : " إنه التقرير الحاسم في الظرف النفسي المناسب ، فالنفس التي ترتسم لها صورة الحيرة الطاغية والعذاب المرير من هذه الحيرة التي لا تستقر على قرار ، تكون أقرب ما تكون إلى استقبال القرار الحاسم بالراحة والتسليم " وقد كثرت عناصر التأكيد والتثبيت والتطمين فهي تبدأ بالأمر " قل " وهو خطاب لرسول الله ﷺ الذي أيقنت العقول بصدقه ، واطمأنت إلى أخباره حتى وإن ظهرت بمظهر المكذب ، وسلكت سبيل المخالف ﴿ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ الأنعام٣٣ ، والتأكيد بـ " إن " واسمية الجملة ، والمجيء بالمصدر للمبالغة ، وإضافته إلى لفظ الجلالة " هدى الله " وصيغة القصر بتعريف الطرفين وضمير الفصل، وهذا يناسب مقتضى حال المشركين المنكرين أن الإسلام هدى[٢].

وقوله : ﴿ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ جملة خبرية جاءت فعلية لتدل على تجدد الإسلام منهم حالا بعد حال ووقتا بعد وقت ، وضمير المتكلمين في " أمرنا " وهو يشمل الرسول ﷺ والمؤمنين

---

(١) الظلال لسيد قطب ٢ / ١١٣٢ .
(٢) راجع : التحرير والتنوير م٣ جـ٧ / ٣٠٣ .

وفي أمرهم وتنفيذهم للأمر وتحريضهم عليه بالدعوة إليه ، والترغيب في الدخول فيه ، والترهيب من الإعراض عنه ، حمل لغيرهم على التشبه بهم ، والاطمئنان في الدخول في الإسلام والمسارعة إليه ، واختيار " لنسلم " وفيه معنى التسليم والانقياد ، والاستسلام لله في جميع ما قضى وقدر ، واستعمال لفظ "رب" تقرير لحقيقة أن الوجود كله وما فيه من عوالم مشهودة ومغيبة مستسلم للنواميس التي وضعها الله لا تملك الخروج عليها [١] .. وفي إعلان الرسول ﷺ والمسلمين معه أنهم أمروا بالاستسلام فاستسلموا إيحاء مؤثر لمن يفتح الله قلبه للتلقي والاستجابة على مدى الزمان"[٢].

وهذه الجملة:"وأمرنا ... " معطوفة على قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ الأنعام ٥٦ وقوله: ﴿ قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا.. ﴾ الأنعام ٧١[٣]، وفيها معنى المقابلة البديعة، فبعد النهي عن عبادة غير الله تعالى، والإنكار على من يعبد مالا ينفع ولا يضر تأتي هذه الحقيقة الأبدية الساطعة، وهذا البيان الحق الجلي بالأمر بالإسلام والاستسلام لرب العالمين، والإنابة إليه، وأداء أوامره، لأن المرجع ليس إلا إليه، ولذلك تستطرد الآيات استطرادا مطلوبا، وبيانا مرغوبا فيه، في ذكر صفات من المرجع لا يكون إلا له بعد هذه الآية:﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ... ﴾.

---

(١) الظلال لسيد قطب ٢ / ١١٣٣ .
(٢) السابق .
(٣) التحرير والتنوير م٣ جـ٧ / ٣٠٤ .

الموطن الثالث

في قوله تعالى : ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى المَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ ﴾ الرعد ١٤ .

بعد أن بين تعالى في الآيات السابقة قدرته وعلمه بكل شيء وأنه محيط بما تحمله الحوامل ... وأنه سواء منهم من أسر القول من جهر به فإنه يسمعه لا يخفى عليه ، وهو الذي يسخر البرق يخاف أذاه المسافر ويرجو بركته المقيم ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء من عباده ، وهو شديد الأخذ والقوة[١] شرع يبين ضلالهم الذي يضرهم ولا ينفعهم : ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ ... ﴾ **استئناف ابتدائي بمنزلة النتيجة ، ونهوض المُدَلَّل عليه بالآيات السالفة التي هي براهين الانفراد بالخلق الأول ثم بالخلق الثاني وبالقدرة التامة التي لا تدانيها قدرة قدير ، وبالعالم العام ، فلا جرم أن يكون صاحب تلك الصفات هو المعبود بالحق وإن عبادة غيره ضلال "[٢] وقد أثبت لنفسه تعالى الدعوة الحق ، والمراد العبادة الحق ، وتقديم الجار والمجرور لإفادة الاختصاص ، أي : دعوة الحق ملكه لا ملك غيره وهو قصر إضافي[٣] ودعوة الحق قيل : لا إله إلا الله وما كان من الشريعة بمعناها[٤] ومضمون هذه الجملة يتسع لكل معاني الخير والرشد والهدى وفي جعل الأسلوب من قبيل القصر الإضافي دلالة على جواز**

---

(١) راجع الآيات ٨ ــ ١٣ وتفسير ابن كثير ٢ / ٥٠٣ .
(٢) التحرير والتنوير م٦ جـ١٣ / ١٠٧ .
(٣) حاشية الشهاب الخفاجي ٣٩٧/٥ ، والتحرير والتنوير م٦ جـ١٣ / ١٠٨ .
(٤) البحر المحيط لأبي حيان ٦ / ٣٦٦ .

إسناد الخير إلى البشر لأنهم الذين يقومون به لكن الموفق والمؤيد في الحقيقة هو الله تعالى ، وقابل قوله : " له دعوة الحق " وما يحمله من معنى النفع والخير ... بنفي أي نفع وأي إجابة من الأصنام لعابديها في قوله : ﴿ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى المَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ﴾ .

وهذه المقابلة تبين الفرق بين عبادة الإله الحق أو دعائه وبين عبادة أو دعاء الأصنام فلفظ " شيء " نكره في سياق النفي وهي تعم ، والتنكير للتحقير ، والمراد أقل ما يجاب به من الكلام.(١)

ثم هذا القصر المفاد من النفي والاستثناء الذي نفى كل إجابة للأصنام ، وهذا الاستثناء من تأكيد الشيء بما يشبه ضده فيؤول إلى نفي الاستجابة في سائر الأحوال بطريق التلميح والكناية على حد قوله :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب(٢)

والمراد نفي الاستجابة أصلا إلا أنه قد أخرج الكلام مخرج التهكم بهم فقيل : لا يستجيبون لهم شيئا من الاستجابة إلا استجابة كائنة في هذه الصورة التي ليست فيها شائبة الاستجابة قطعا فهي في الحقيقة من باب التعليق بالمحال(٣) ونظَّروا الأسلوب بقوله :

---

(١) التحرير والتنوير م٦ جـ١٣ / ١٠٩ .
(٢) السابق ، وحاشية الشهاب الخفاجي ٤٠٠/٥ ، وتفسير أبي السعود ٢٠٩/٣ .
(٣) تفسير أبي السعود ٣ / ٢٠٩ .

وعضّ زمانٌ يا ابن مروان لم يدع من المال إلا مسحتا أو مُجَلَّفُ[١]

أي : لم يدع من المال شيئا لأن المسحت هو : استئصال ما عنده من المال ، وسَحَتَ الحجَّامُ الخِتان استأصله ، وأسحت ماله ، استأصله وأفسده ، وكذا جلفت الشيء إذا قطعته واستأصلته ، وجَلَفَ الطينَ عن رأس الدِّنِّ ... نَزَعه ويقال: أصابتهم جليفة عظيمة إذا اجتلفت أموالهم ... " [٢].

ويقوى معنى الاستثناء ويؤكده هذا التشبيه المتداخل فيه والذي هو مفهوم جملة القصر ، فكانت بيانا لها ، وكان مقتضى الظاهر أن تفصل ولا تعطف، وإنما عطفت لما فيها من التفصيل والتمثيل ، فكانت زائدة على مقدار البيان ، والمقصود بيان عدم استحقاق الأصنام أن يدعوها الداعون [٣].

وقد اختلفت الرؤى والتوجيهات في هذا التشبيه فمنهم من جعله من قبيل المركب التمثيلي ومنهم من جعله من قبيل المفرد المقيد ... ولكنها تلتقي حول مضمون واحد وهو خيبة الأمل وعدم الفائدة في عبادة هذه الأصنام ، أما التوجيه الأول : فقد جعل من المركب التمثيلي ، شبه حال الأصنام مع من دعاهم من المشركين وعدم فوز المشركين من دعائهم الأصنام بشيء من الاستجابة والنفع بحال الماء الواقع بمرأى العطشان الذي يبسط كفيه يطلبه أن يبلغ فاه وينفعه من احتراق كبده، ووجه التشبيه عدم استطاعة المطلوب منه

---

(١) حاشية الشهاب الخفاجي ٤٠٠/٥ ، وروح المعاني للألوسي ٤٦٤/٨ ، واللسان " جلف " ٦٦٠/١ .

(٢) لسان العرب لابن منظور مادة " سحت " ١٩٤٨/٣ ، ومادة جلف ٦٦٠/١ .

(٣) حاشية زاده ١١٣/٣ ، وحاشية الشهاب الخفاجي ٣٩٩/٥ ، التحرير والتنوير م٦ جـ١٣ /١٠٨ .

إجابة الدعاء، وخيبة الطالب عن نيل ما هو أحوج إليه من المطلوب، وهذا الوجه كما ترى منتزع من عدة أمور (١).

ومع أن هذا التشبيه منتزع من عدة أمور لكنه لا يجوز أن يقابل كل طرف في المشبه بما يقابله في المشبه به فإن الماء في نفسه شيء نافع بخلاف آلهتهم (٢).

أما التوجيه الثاني : فقد شُبِّه المشركون الذين يعبدون الأصنام بمن أراد أن يغترف الماء ليشربه فيبسط كفيه ناشراً أصابعه في عدم انتفاع كل واحد منهما بسعيه فهو من تشبيه المفرد المقيد بآخر مثله كقولك : لمن لا يحصل من سعيه على شيء : هو كالراقم على الماء، فكذلك فيما نحن فيه (٣).

وروى عن علي ــ كرم الله وجهه ــ أن ذلك تشبيه بعطشان على شفير بئر بلا رشاء ولا يبلغ قعر البئر ولا الماء يرتفع إليه ، وهو راجع إلى الوجه الأول وليس مغايرا له ، وعن أبى عبيدة أن ذلك تشبيه بالقابض على الماء في أنه لا يحصل على شيء ثم قال : والعرب تضرب المثل في الساعي فيما لا يدركه بذلك وأنشد قول الشاعر :

وإني وإياكم وشوقا إليكم ... كقابض ماءٍ لم تطعه أنامله(٤)

(١) حاشية زاده ١١٣/٣ ، وحاشية الشهاب الخفاجي ٣٩٩/٥ .
(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٢٠٩ .
(٣) حاشية زاده ١١٤/٣، ومفاتيح الغيب للفخر الرازي ٢١٨٠/٩ .
(٤) راجع : روح المعاني للألوسي ٤٦٥/٨، ومجاز القرآن لأبى عبيده ٣٢٧/١ ، والبحر المحيط لأبي حيان ٦ / ٣٦٨ .

الوجه الثالث : وهو تشبيه من يعبد غير الله تعالى بالظمآن الذي يرى خياله في الماء وقد بسط كفيه فيه ليبلغ فاه وما هو ببالغه لكذب ظنه ، وفساد توهمه ، والوجه عدم الفائدة والمنفعة في كل[١].

والناظر في الآية يجد ألفاظها وتراكيبها تؤكد خيبة أمل الذي يدعو غير الله تعالى . فتصدير الآية بقصر الحق على من يدعوه تعالى " له دعوة الحق" ومقابلة هذا بضياع وخيبة أمل الذين يدعون من دونه ، والتعبير عنهم باسم الموصول للتنبيه على خطئهم أو الإشارة إلى وجه بناء الخبر[٢] ، وإثبات عدم استجابة الأصنام لهم البتة ، ومجيء هذا التعبير لتأكيد هذا المعنى وإسباغ معنى التهكم والاستهزاء بهم لشدة خيبتهم ، وعظيم خسرانهم ، وفيه معنى الكناية عن عدم الإجابة والخسران ، ثم هذا التعبير : " وما هو ببالغه " وعدم القطع في تحديد الراجع إليه الضمير " هو " حيث يجوز أن يرجع إلى ضمير الماء والهاء في "ببالغه" للفم أي : وما الماء ببالغ فيه ، ويجوز أن يرجع إلى الفم والهاء في " ببالغه " إلى الماء أي : وما الفم ببالغ الماء ، إذ كل واحد منهما لا يبلغ الآخر على هذا الحال ، فنسبة الفعل إلى كل واحد وعدمها صحيحان ، ويجوز أن يرجع إلى " بباسط " والهاء في " ببالغه " للماء أي ، وما باسط كفيه إلى الماء ببالغ الماء[٣] وعلى التقديرات الثلاثة تظهر الحاجة إلى الماء ، وامتناع الماء أن يصل إلى الفم ، وامتناع الفم أن يصل إلى الماء ، بل وامتناع الباسط نفسه أن يصل إلى شيء مما يحتاجه ، ثم هذا التذييل لهذه الصورة : " وما دعاء الكافرين إلا في ضلال " وهي

---

(١) راجع : تفسير تفسير القرطبي ٦٧١/٥ ، والبحر المحيط لأبي حيان ٣٦٧/٦ .
(٢) شرح التلخيص ١ / ٣٠٦ .
(٣) الدر المصون للسمين الحلبي ٢٣٦/٤، وحاشية الجمل ٤٩٧/٢ .

تؤكد المعنى السابق وتقويه ، وقد عطفت على جملة " والذين تدعون من دونه " لاستيعاب حال المدعو وحال الداعي ، فبينت الجملة السابقة حال عجز المدعو عن الإجابة ، وأعقبت بالتمثيل المشتمل على كناية وتلميح ، واشتمل ذلك أيضا بالكناية على خيبة الداعي ، وبينت هذه الجملة الثانية حال خيبة الداعي بالتصريح عقب تبيينه بالكناية [١].

والحصر بالنفي والاستثناء يفيد تأكيد المعنى والإظهار في مقام الإضمار حيث لم يقل : وما دعاؤهم لإبراز صفة الكفر فيهم والنص عليها ، وحصرهم في الضلال والضياع ، لأنهم إن دعوا الله لم يجبهم ، وإن دعوا الآلهة لم تستطع إجابتهم . [٢]

وهي صورة مرسومة لمن يعبد غير الله تعالى . مسودة القسمات ، كالحة التقاطيع ، صاحبها مُعْدِم لا يجد ما يحتاجه ، ولا يؤمل ما يصيبوا إليه ، ولك أن تتخيل ظمآن يقف على شفير بئر ، وقد مد يده ليأتي بالماء ، ولكنه لقلة فهمه ، وعدم بصيرته بسط أصابع كفيه وهي حالة يستحيل معها بلوغ الماء إلى فيه ، لفساد في التعاطي ، وغباء في الاستعمال ، يقول صاحب الظلال[٣] والمشهد هنا ناطق متحرك لاهف ــ الأسى والحزن ــ فدعوة واحدة هي الحق وهي التي تحق وهي التي تستجاب إنها دعوة الله والتوجه إليه ... وما عداها باطل ضائع ... وهذا واحد منهم ملهوف ظمآن يمد ذراعيه ، ويبسط كفيه ، وفمه مفتوح يلهث بالدعاء يطلب الماء ليبلغ

---

(١) التحرير والتنوير م٦ جـ١٣ / ١٠٩ .
(٢) راجع الكشاف للزمخشري ٣٥٤/٢ ، والبحر المحيط لأبي حيان ٣٦٨/٦ ، ومفاتيح الغيب للفخر الرازي ٢١٩/٩ .
(٣) ٤ / ٢٠٥١ .

فاه فلا يبلغه وما هو ببالغه بعد الجهد واللهفة والعناء ، وكذلك دعاء الكافرين بالله الواحد حين يدعون الشركاء .

هذا المشهد جزء من مشهد البرق والرعد والسحاب والصواعق التي تصاحبها في بعض الأحيان وهي بذاتها مشاهد ذات أثر في النفس ، والسياق يحشدها هنا ويضيف إليها الملائكة والظلال والتسبيح والسجود والخوف والطمع والدعاء الحق والدعاء الذي لا يستجاب ، ويضم إليها هيئة هذا الملهوف الذي يطلب ماء باسطا فاه ليبلغه ، فاتحا فاه يتلقف منه قطرة . (١)

إنَّ تَجَمُّع مناظر الطبيعة الهادرة ، ومشاعر النفس الملتاعة مقصودة هنا لتلُفَّ المشهد بالسواد والفاقة وعدم النوال مع شدة الحاجة إليه ، كما تَلُفُّه بجو الرهبة والترقب والخوف والطمع والضراعة والارتجاف في سياق تصوير سلطان الله المتفرد بالقهر والنفع والضر نفيا للشركاء المدعاة ، وإرهابا من عقبى الشرك بالله . (٢) والتشبيه من قبيل تشبيه المعقول وهو الذي عبد آلهة غير الله تعالى بالمحسوس وهو الإنسان الواقف على شفير البئر بلا رشاء لا يبلغ قعر البئر ولا يستطيع الوصول إلى الماء ولا يستطيع الماء الوصول إليه ، وهي صورة محسوسة مشاهدة ترسم ملامح المحتاج الذي لا ينال حاجته مع شدة الحاجة إليها ، وهي صورة من صور أصل التشبيه لإجلاء وكشف حالة المشبه وتجسيدها وكأنها مشاهدة محسوسة .

---

(١) راجع آيتا ١٢ ، ١٣ ، والظلال لسيد قطب ٤ / ٢٠٥١ .
(٢) راجع : الظلال لسيد قطب ٤ / ٢٠٥٠ .

الموطن الرابع

قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِراًّ وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ **النحل آيتا ٧٥ ، ٧٦ .**

وهما مثلان يأتيان عقيب شوط طويل في السورة يبدأ بأمر الله للناس بألا يتخذوا إلهين اثنين لأنه إله واحد واجب الخوف والخشية له ما في السموات والأرض ، وكل النعم منه وراجعة إليه ، وهو الذي يكشف عنكم الضر ، ومع ذلك يجعلون له البنات وهو سبحانه منزه عن ذلك ولكنه يشملهم برحمته مع ما يصدر منهم من ظلم وتكذيب ، وهو الذي أنزل الماء من السماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وأخرج اللبن من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين ، وأسبغ عليكم من النعم والثمرات لتتدبروا وتعقلوا وهو تعالى الذي أخرج من النحل هذا العسل الذي جُعل شفاء من الأمراض لتتفكروا وتتدبروا ، وهو الذي خلقكم وهو الذي يتوفاكم ، وهو الذي جعل فيكم الغني والفقير ... ومع كل هذه النعم فإنهم يستمرون على عبادة غير الله تعالى ، وهذه الآلهة قد بلغت الغاية في الضعف فلا تملك رزقا ولا تستطيع ، ثم ينهي عن ضرب الأمثال لله مخافة الوقوع في الخطأ فلا يعرف قدر الله إلا الله ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئاً وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ * فَلاَ تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ **ثم علمهم تعالى كيف تضرب الأمثال فضرب مثلين .**

الأول في قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِراًّ وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ

لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ وفي تفسير هذا المثل قولان : الأول : أنا لو فرضنا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء وفرضنا حرا كريما غنيا كثير الإنفاق سرا وجهرا فصريح العقل يشهد بأنه لا تجوز التسوية بينهما في التعظيم والإجلال فلما لم تجز التسوية بينهما مع استوائهما في الخلقة والصورة البشرية فكيف يجوز للعاقل أن يسوي بين الله وبين الأصنام ، فيكون قد شبه حال أصنامهم في العجز عن رزقهم بحال مملوك لا يقدر على تصرف في نفسه ولا يملك مالا ، وشبه شأن الله تعالى في رزقه إياهم بحال الغني المالك أمر نفسه بما شاء من إنفاق وغيره ، والمقصود نفي المماثلة بين الحالتين . الثاني : أن المراد بالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء هو الكافر حيث صار محروما من عبودية الله وطاعته ، فصار كالعبد الذليل العاجز ، والمراد بقوله " ومن رزقناه منا رزقا حسنا " هو المؤمن فإنه مشتغل بالتعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله ، فبين تعالى أنهما لا يستويان في المرتبة والشرف والقرب من رضوان الله تعالى[١] لكن القول الأول أقرب لأمور كثيرة منها : أولاً : أن جل المفسرين قالوا به وكثير منهم لم يذكر غيره ، ثانيا: وهو الأهم أن ما قبل هذه الآية وما بعدها إنما ورد في إثبات التوحيد وفي الرد على القائلين بالشرك فحمل هذه الآية على هذا المعنى أولى[٢].

والأسلوب غاية في السخرية والذم فالعبد من بين معانيه الإنسان الذي يملكه إنسان آخر بالأسر أو بالشراء أو بالإرث [٣]

---

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٩ / ٥٩٣ ، والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور مجلد ٦ جزء ١٤ / ٢٢٣ .

(٢) مفاتيح الغيب للفخر الرازي ١٩ / ٥٩٣ ، والمحرر الوجيز لابن عطية ٣ / ٤١٠ .

(٣) التحرير والتنوير مجلد ٦ جزء ١٤ / ٢٢٤ ، ومفردات الراغب ص٣٢٢ .

وهي صفة تحمل معنى العجز والضعف إذ لا يستطيع أن يتصرف إلا بأمر سيده، ولما كان لفظ العبد قد يطلق على الحر خصص بمملوك، ولما كان المملوك قد يكون له تصرف وقدرة كالمأذون والمكاتب خصص بقوله "لا يقدر على شيء"[١] فأزال عنه كل صفة للنفع وأثبت له كل صفات العجز والضعف فلفظه "شيء" نكرة وهي في سياق النفي تعم، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾[٢].

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً ﴾[٣].

حيث جاءت لفظ " شيئًا " في سياق النفي فهي تعم، أي لا يخلقون أي نوع من الخلق قليلاً أو كثيراً قويًا أو حقيرًا .

وقد أبهم المثل أولا ثم بينه بما ذكر بقوله " عبدا مملوكا لا يقدر على شيء " وفي ذلك مالا يخفى من الفخامة والجزالة[٤] وهذا المثل مأخوذ من واقعهم فقد كان لهم عبيد مملوكون ، لا يملكون شيئا ولا يقدرون على شيء، وهم لا يسوون بين العبد المملوك العاجز والسيد المالك المتصرف فكيف يسوون بين سيد العباد ومالكهم وبين أحد أو شيء مما خلق وكل مخلوقاته له عبيد؟[٥].

وعندما شُبِّه شأن الله في رزقه إياهم بالغني المالك أمر نفسه جاءت الألفاظ تزف نسائم الخير وتسوق السرور والبشرى للمخاطبين ، فالالتفات من الغائب " ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٦ / ٥٦٩ ، والكشاف للزمخشري ٢/ ٤٢٠ .
(٢) النحل آيتا ٢٠ ، ٢١ .
(٣) العنكبوت ١٧ .
(٤) تفسير أبي السعود ٣ / ٣٨٤ .
(٥) الظلال لسيد قطب ٤ / ٢١٨٣ .

شيء " إلى التكلم " ومن رزقناه " للإشعار باختلاف حال ضرب المثل والرزق ، و" من " يجوز أن تكون موصولة وأن تكون موصوفة واختاره الزمخشري كأنه قيل : وحرا رزقناه ليطابق عبدا[١].

وفي اختيار ضمير العظمة ــ رزقناه ــ منا ــ تعظيم لأمر ذلك الرزق ، ووصف الرزق بالحسن يدل على أنه حلال طيب أو مستحسن مرضي عند الناس ويؤخذ منه كونه كثيرا بناء على أن القلة التي هي أُخت العُدْم لا حسن في ذاتها أو من قوله "سرا وجهرا " الدالين على كمال التصرف وسعة المتصرَّف فيه[٢] وجملة " فهو ينفق منه سرا وجهرا " مفرعة على التي قبلها وليست صفة للرزق للدلالة على أن مضمون كلتا الجملتين مقصود لذاته كمال في موصوفه . فكونه صاحب رزق حسن كمال ، وكونه يتصرف في رزقه بالإعطاء كمال آخر ، وكلاهما بضد نقائص المملوك الذي لا يقدر على شيء من الإنفاق ولا ما ينفق منه[٣] وقوله "سرا وجهرا " حالان من ضمير " ينفق " والمقصود من ذكرهما تعميم الإنفاق كناية عن استقلال التصرف[٤] وجاءت جملة " فهو ينفق " اسمية فعلية الخبر للدلالة على ثبات الإنفاق واستمراره التجددي[٥].

وقد ذُيِّل المثل بثلاث جمل ، الأولى قوله : " هل يستوون " وهي بيان لجملة " ضرب الله مثلا " وفيها بيان لغرض التشبيه وهو

---

(١) حاشبية الجمل ٥٨٧/٢ ، والكشاف للزمخشري ٤٢٠/٢ .
(٢) راجع روح المعاني للألوسي٤٠٣/٩، وحاشية الشهاب٦٢٦/٥ .
(٣) التحرير والتنوير ... /٢٢٥ .
(٤) السابق .
(٥) روح المعاني للألوسي ٤٠٣/٩ ، والتحرير والتنوير .../ ٢٢٥ .

أن المثل المراد منه عدم تساوي الحالتين ، وليس لهذا الاستفهام إلا إجابة واحدة وهي " لا " أي : العبيد العجزة والحر [١].

والاستفهام فيه معنى التبكيت والإنكار عليهم في مساواة الآلهة العاجزة الضعيفة بالإله الخالق القادر الرازق ، وجاءت صيغة الجمع " هل يستوون " نظراً إلى تعدد أفراد كل قسم[٢] وجعلها ابن عاشور[٣] لمراعاة أصحاب الهيئة المشبهة لأنها أصنام كثيرة كل واحد منها مشبه بعبد مملوك لا يقدر على شيء فصيغة الجمع هنا تجريد للمثيلية أي هل تُسَوَّى أولئك مع الإله الحق القادر المتصرف . كما جعل استعمال ضمير العاقل تغليبا لجانب أحد التمثيلين وهو جانب الإله القادر[٤] وكلامه عن سر استعمال ضمير العقلاء لا يستقيم لأمرين :

الأول : أنه تعالى لا يوصف بأنه عاقل أو غير عاقل لأنهما صفتان للمخلوقات وهو تعالى مخالف للحوادث ، فحتى وإن كان الوصف بالعقل أرفع شأنا وأعلى قدراً وأسمى منزلة من الوصف بعدمه ، إلا انه لا يستقيم معه تعالى هذا الوصف. الثاني : أن هذا الاستعمال مطرد في وصف الأصنام بضمير العقلاء وقد مضى مبحث كامل في هذا الصدد ، والأولى أن يوجه استعمال ضمير العاقل في قوله " هل يستوون " على أن التشبيه قصد به العبد الذي لا يملك والحر الذي يملك .

---

(١) راجع تفسير السيوطي بهامش حاشية الجمل ٥٨٧/٢ .
(٢) حاشية الجمل ٥٨٧/٢ ، وانظر الدر المصون للسمين الحلبي ٣٤٩/٤.
(٣) التحرير والتنوير ... / ٢٢٦ .
(٤) السابق .

والثانية قوله : " الحمد لله " والظاهر أنه خطاب للرسول ﷺ ويحتمل أن يكون خطابا لمن رزقه الله ، أمره أن يحمد الله على أن ميزه بهذه القدرة على الضعيف[١] ، وقال ابن عطية : " الحمد لله شكر على بيان الأمر بهذا المثال وعلى إذعان الخصم له ، وهذا كما تقول لمن أذعن لك في حجة وسلم ما تبنى أنت عليه قولك : الله أكبر على هذا يكون كذا وكذا ، فلما قال هنا " هل يستوون " فكأن الخصم قال له لا ، فقال الحمد لله ظهرت الحجة .[٢] وأتى بها جملة إخبارية إرشادا للعبد إلى وجوب شكر المنعم على ما أسبغ من العوارف والآلاء [٣].

وهي جملة تفيد انحصار الحمد لله تعالى وهو إما قصر ادعائي لأن الحمد إنما يكون على نعمه وغير الله إذا أنعم فإنما إنعامه مظهر لنعمة الله تعالى ، وإما قصر إضافي إفرادي للرد على المشركين إذ قسموا حمدهم بين الله تعالى وبين آلهتهم .

والثالثة قوله : " بل أكثرهم لا يعلمون " وهو إضراب للانتقال من الاستدلال عليهم إلى تجهيلهم في عقيدتهم ، وأسند نفي العلم إلى أكثرهم ، لأن منهم من يعلم الحق ويكابر استبقاء للسيادة واستجلابا لطاعة دهمائهم فهذا ذم لأكثرهم بالصراحة ، وهو ذم لأقلهم بوصمة المكابرة والعناد بطريق التعريض[٤] أو يكون المعنى : أنهم لا علم

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٦ / ٥٧٠ .
(٢) راجع البحر المحيط لأبي حيان ٦ / ٥٧٠ ، والمحرر الوجيز لابن عطية ٣ / ٤١٠ .
(٣) إعراب القرآن الكريم وبيانه لمحي الدين الدرويش ٢٧٨/٤ ط التاسعة ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م ، دار الإرشاد للشئون الجامعية ـ حمص ـ سورية .
(٤) التحرير والتنوير .../ ٢٢٦ .

لهم أصلا إذ لو كان لهم علم لنفعهم في علمهم بالله ... ولأنهم يعملون في هذا الجهل فنسبتهم إلى الغباوة أحسن في حقهم من نسبتهم إلى الضلال على علم [١].

أما المثل الثاني : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ فهو يدل على مادل عليه المثل الأول على وجه أوضح وأظهر ولا تمكن المكابرة فيه [٢] ، وهذا المثل يصور الرجل الأبكم الضعيف البليد الذي لا يدري شيئا ولا يعود بخير، والرجل القوي المتكلم الآمر بالعدل العامل المستقيم على طريق الخير ولا يسوي عاقل بين هذا وذاك ، فكيف تمكن التسوية بين صنم أو حجر وبين الله سبحانه وهو القادر العليم الآمر بالمعروف الهادي إلى الصراط المستقيم "[٣] وقد ضربه الله لنفسه ولما يفيض على عباده ويشملهم من آثار رحمته وألطافه ونعمه ، وللأصنام التي هي أموات لا تضر ولا تنفع[٤] والزمخشري لم يقل إلا بهذا الرأي وقال به وأضاف : أنه مثل للمؤمن والكافر ابن عطية لكنه صوَّب جعل المثل لله تعالى وللأصنام كما قال به الزمخشري لملاءمته السياق، يقول : " وقال مجاهد والضحاك هذا المثال " ضرب الله مثلا عبداً مملوكا ... " والمثال الآخر الذي بعده إنما هو لله تعالى والأصنام ، فتلك هي للعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء ، والله تعالى تتصرف قدرته دون

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ٢٩٤/٤ ، ٦ / ٢٩ .
(٢) السابق ٤ / ٢٩٥ .
(٣) الظلال لسيد قطب ٤ / ٢١٨٤ .
(٤) الكشاف للزمخشري ٤٢١/٢ ، والمحرر الوجيز لابن عطية ٤١١/٣ .

معقب" ثم قال : " وهذا التأويل أصوب لأن الآية تكون من معنى ما قبلها وما بعدها في تبيين أمر الله والرد على أمر الأصنام"[١].

وقد أورد أبو حيان معنى قول الزمخشري ورده قائلاً : "...وهذا ليس كذلك لأنه قال : " مثلا رجلين " فلابد أن يكون عديل الأبكم الموصوف بتلك الصفات ومقابلة رجل موصوف بما يقابل تلك الصفات من النطق والقدرة والكفاية ولكنه حذف المقابل لدلالة مقابله عليه " [٢].

وكذلك الرازي[٣] صوَّب الرأي القائل بأنه مثل للكافر والمؤمن وجعله أولى من قول من قال إنه مثل لله تعالى وللأصنام لأن وصفه تعالى إياهما بكونهما رجلين يمنع من حمل ذلك على الوثن وكذلك بالبكم وبالكَّل وبالتوجه في جهات المنافع ، وكذلك وصف الآخر بأنه على صراط مستقيم يمنع من حمله على الله تعالى " ثم يضيف : " وأيضا فالمقصود تشبيه صورة بصورة في أمر من الأمور وذلك لا يتم إلا عند كون إحدى الصورتين مغايرة للأخرى "[٤] ومع عقلانية كلام أبى حيان والرازي ، فإن سياق الآيات يؤكد القول بأن هذا المثل ضربه الله تعالى لنفسه وللوثن . لأن السورة كلها تدور حول الأمر بتوحيد الله تعالى الذي خلق وملك وأنعم والنهي عن عبادة غيره تعالى ، كما أن الرأي القائل بأنه مثل للكافر والمؤمن والذي صوبه الرازي لا يُرْفض ولا ينكر لأنه مأخوذ من معنى المثل في الآية .. وهما مأخوذان من معين واحد ومقصودهما واحد فالكافر لما كان محروما من عبادة الله تعالى وطاعة الله تعالى صار كالعبد الذليل

---

(١) السابق ٣/٤١٠ .
(٢) راجع : البحر المحيط لأبي حيان ٦ / ٥٧١ .
(٣) مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٩ / ٥٩٨ .
(٤) السابق .

الفقير العاجز الذي لا يقدر على شيئ ، والمؤمن لما اشتغل بطاعة الله تعالى وعبوديته والإنفاق في وجوه البر صار كالحر المالك الذي ينفق سرا وجهرا في طاعة الله وابتغاء مرضاته .

أما في جعل المثل لله تعالى والأصنام فليس المراد حرفية الصورة ولا نصية التشبيه الذي حمل الرازي على رفضه ومنعه، وإنما هو تصوير وتقريب للعقول ، فالله عز وجل الذي لا يكون الخير إلا منه ، ويُدلَّ عليه بكل ما هو نافع ومفيد ، وبكل ما هو خير وعدل واستقامة، دون تشبيه أو تعطيل فلا مجال لقول الرازي: "...وكذلك وصف الآخر بأنه على صراط مستقيم، يمنع من حمله على الله تعالى" .

وقد أضاف أبو السعود وجها آخر صدره بقوله: "ولا يبعد" يقول : "ولا يبعد أن يقال : إن الله تعالى ضرب مثلا بخلق الفريقين على ما هما عليه ، فكان خلقهما كذلك ، للاستدلال بعدم تساويهما على امتناع التساوي بينه سبحانه وبين ما يشركون ، فيكون كل من الفعلين حكاية للضرب الماضي "[١] ومع ما في هذا الرأي من القبول والوجاهة ، إلا أن عبارة " لا يبعد " تشير إلى أنه ليس الأولى أو أنه فهم ثانوي يتقدمه ما قيل من آراء وليس الأمر كذلك ، وقد أشار إلى ذلك الألوسي في تعقيبه عليه بقوله " ولا يخفى أنه لا كلام في حسن اختياره لكن في النفس من قوله :" لا يبعد "شيء" [٢].

والمقصود بضرب هذا المثل : إبطال عبادة الأوثان بهذا المثل فقد تقرر في العقول أن الأبكم العاجز لا يكون مساويا في

---

(١) تفسير أبي السعود ٣ / ٣٨٦ .
(٢) روح المعاني للألوسي ٩ / ٤٩ .

الفضل والشرف للناطق القادر الكامل مع استوائهما في البشرية فلأن يكون الجماد غير مساو لرب العالمين في العبودية أولى [١].

وقوله : " وضرب الله مثلا " أبهم ذلك لتنتظر النفس إلى وروده وتترقبه حتى يتمكن لديها عند وروده فقيل رجلين"[٢].

وفي هذا المثل المضروب لله تعالى وللأصنام أو للكافر والمؤمن إطناب في الصفات التي تدل على العجز والضعف التي هي في جانب المشبه،فالمثل الأول وصف فيه الأصنام أو الكافر بثلاث صفات،"عبدا مملوكا لا يقدر على شيء " وفي هذا المثل وصف بأربع صفات غاية في العجز والضعف وعدم المالكية .

الصفة الأولى قوله:" أبكم " وهو الذي يولد أخرس ويقال : بكم عن الكلام إذا ضعف عنه لضعف عقله فصار كالأبكم[٣]،والأبكم الذي لا يسمع ولا يبصر[٤]، وهو الأنسب لأن الأخرس يفهم بالسماع وبالإشارة[٥] .

والصفة الثانية: قوله " لا يقدر على شيء " وهى إشارة إلى العجز التام والنقصان الكامل ، وقد تكررت هذه الصفة في المثلين لما فيها من عموم العجز والضعف وعدم المقدرة على شيء ما[٦] .

---

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٩ / ٥٩٦ .
(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٣٨٦ .
(٣) المفردات للراغب ص٦٨ .
(٤) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٨٩/١ تحقيق عبد الجليل عبده شلبي خرَّج أحاديثه الأستاذ علي جمال الدين محمد دار الحديث القاهرة ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م ، وتفسير مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٥٩٦/٩ .
(٥) حاشية الجمل ٥٨٨/٢ وإعراب القرآن الكريم وبيانه لمحي الدين الدرويش ٢٧٦/٤ .
(٦) راجع مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٥٩٧/٩ ، ونظم الدرر للبقاعي ٢٩٥/٤ .

والصفة الثالثة : قوله " وهو كَلٌّ على مولاه " وأصل الكلل : من الغِلّظ الذي هو نقيض الحِدَّة يقال : كَـلَّ السـكين : إذا غلظـت شفرته فلم يقطع. وكَلَّ لسانه إذا غلط فلم يقدر على الكـلام[١] وهـذا بيان لعدم قدرته على إقامة مصالح نفسه بعد ذكر عدم قدرته علـى إقامة مصالح مولاه[٢] .

والصفة الرابعة:قوله:"أينما توجهه لا يأت بخير"وهو شرط وجوابه، وقد جمعت الجملة كل صفات العجز والضعف ولذا طالت عن سابقتها وفيها زيادة وصفه بقلة الجدوى[٣] ولذا حسن كل الحسن تـوبيخهم والإنكار عليهم بعدها بقوله: "هل يستوي هو.."[٤] والصـفة الثالثـة والرابعة زيدتا في المثل الثاني : للتأكيد على أن هذه الآلهة المـدعاة عديمة النفع والفائدة...كما انفرد هذا المثل بلفظـة"رجلين" لأنهمـا مظنة المنفعة والفائدة،وصفة الرجولة لم تذكر في القرآن إلا صـفة مدح وثناء لما تحويه من الصفات الطيبة، والسجايا الحميدة، حيـث تنشر الخير وتدفع الشر وتقاوم الظلم كقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَجُـلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّـهُ﴾[٥]، ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا ... ﴾[٦] . ﴿قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ البَابَ.... ﴾[٧].

---

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٥٩٧/٩ ، ونظـم الـدرر للبقـاعي ٢٩٥/٤ .
(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٣٨٦ .
(٣) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ... / ٢٢٨ .
(٤) نظم الدرر للبقاعي ٤ / ٢٩٥ .
(٥) غافر ٢٨ .
(٦) الأعراف ١٥٥ .
(٧) المائدة ٢٣ .

فلما كان الرجل الأول قد انعدمت فائدته ، وتلاشت منفعته لنفسه وللآخرين صح أن يضرب مثلا للأصنام الجامدة التي لا تنفع نفسها فضلا عن غيرها ، أو الكافر الذي عمي عن توحيد الإله الواحد الحق وعبادته إلى عبادة أصنام وأوهام ، أما الرجل الثاني فقد وصف بصفتين الأولى : قوله : " ... ومن يأمر بالعدل " وهي جملة غاية في الإيجاز تحوي كل معاني الخير والكمال والمنافع ، فالآمر بالعدل يجب أن يكون موصوفا بالنطق والقدرة لأن الأمر بالعدل لا يحصل إلا بالقدرة ، وأن يكون عالما حتى يمكنه التمييز بين العدل والجور، فوصفه بهذه الجملة يتضمن وصفه بكونه قادرا عالما وكونه آمراً يناقض كون الأول " أبكم " وكونه قادراً يناقض وصف الأول بأنه " لا يقدر على شيء " وبأنه " كل على مولاه " وكونه عالما يناقض وصف الأول بأنه " لا يأت بخير "[١] والصفة الثانية : قوله " وهو على صراط مستقيم " وهي في محل نصب على الحال[٢] مبينة لكماله في نفسه ، ولما كان ذلك مقدما على تكميل الغير أتى بها إسمية فإنها تشعر بذلك مع الثبوت إلى مقارنة ذي الحال[٣] وهي صفة جامعة لكل خير تقابل قوله : " أينما يوجهه لا يأت بخير " فكما أن الأول لا يأت بشيء نافع بله الضرر والشرور والخسران ، فإن الثاني على عكسه " على صراط مستقيم" من العمل الصالح والسيرة الحسنة والمنفعة الدائمة العامة الشاملة [٤].

---

(١) راجع : مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٩ / ٥٩٧ .
(٢) حاشية الجمل ٢ / ٥٨٨ .
(٣) حاشية الشهاب ٦٢٨/٥ ، وروح المعاني للألوسي ٤٠٨/٩ .
(٤) راجع التحرير والتنوير ٢٢٨ ، والبيضاوي وحاشية الشهاب عليه ٦٢٨/٥ .

الموطن الخامس

في قوله تعالى : ﴿ حُنَفَاءَ للهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ الحج الآية ٣١.

هذه الآية جاءت في سياق الحديث عن الحج الذي هو شعار التوحيد لله وإخلاص العبادة له ، إذ أُمر سيدنا إبراهيم ــ عليه السلام ــ أن يبني البيت على اسم الله وحده ويجعله خالصا لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له ، وأن يؤذن في الناس ليحجوا إليه لما فيه من المنافع في الدنيا والآخرة ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا البَائِسَ الفَقِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ العَتِيقِ﴾ **الآيات ٢٦ ــ ٢٩ ثم أشار إلى ثواب هذه الطاعات بقوله :** ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ **الآية ٣٠ .**

وهذه الإشارة "ذلك" في غاية البلاغة، وقد سبقت الإشارة إليها(١).

ثم أشار إلى أن في تعظيم حرمات الله وتوقيرها بالفعل أو الترك خيرا كثيرا ولكنه لم يعين جزاءً ولم يحدد أجرًا ، ومع ذلك دلت الجملة : " فهو خير له عند ربه " على إثابة غاية الأجر وعظيم الثواب حيث جاء التعبير بلفظ " خير " أي: ذلك التعظيم خير من

---

(١) انظر هذا البحث ص .

خيراته ينتفع به وهي ليست للتفضيل وإنما هي عدة بخير[١] ويحتمل أن يجعل " خير " للتفضيل على تجوز في هذا الموضع[٢] ثم التقييد بقوله : " عند ربه " يدل على سعة الثواب وكثرته لأنه من عند ربه الذي أسدى له كل ما هو فيه من النعم فوجب عليه شكره[٣] كما يدل على أن هذا الثواب يكون في الآخرة لأنه لا يقال : " عند ربه " فيما حصل من خيرات الدنيا[٤] والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير " من " لتشريفه والإشعار بعلة الحكم[٥] ثم أعقب ذلك بإبطال ما حرمه المشركون على أنفسهم من الأنعام مثل البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي وبعض ما في بطونها[٦] فقال : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُم ﴾ وبمناسبة حل الأنعام يأمر باجتناب الرجس من الأوثان " فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور" ، وهو تلاؤم وتناسب غاية في اللطف والدقة إذ إحلال بهيمة الأنعام لهم ليتنعموا بها فيه تنمية للأبدان وتقوية لها وكذا العقول ، وتحريم ما فيه ضرر وخبث فيه حفظ للأبدان من الأمراض والأوباء وسلامة العقول من التلف والفساد ، وقد سمي الأوثان رجسا وكذلك الخمر والميسر والأزلام[٧] على التشبيه البليغ ، يعني : أنكم كما تنفرون بطباعكم عن الرجس وتجتنبونه فعليكم أن تنفروا عن هذه الأشياء

---

(١) تفسير القرطبي ٧ / ١٣٥ .
(٢) المحرر الوجيز لابن عطية ٤ / ١٢٠ .
(٣) نظم الدرر للبقاعي ٥ / ١٤٩ .
(٤) حاشية زاده ٣ / ٣٨٣ .
(٥) تفسير أبي السعود ٤ / ٢٣ .
(٦) راجع آية المائدة ١٠٣ وآية الأنعام ١٣٩ ، والتحرير والتنوير م٧ جـ١٧/٢٥٢ ، وتفسير البيضاوي بهامش حاشية زاده ٣/٣٨٣ .
(٧) في قوله تعالى ﴿ إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾ المائدة ٩٠ .

مثل تلك النفرة، جعلت العلة في اجتنابه أنه رجس والرجس مجتنب[١] ولأن وجوب تجنبها أوكد من وجوب تجنب الرجس، ولأن عبادتها أعظم من التلوث بالنجاسات... وقيل إنما وصفها بذلك استحقاراً واستخفافاً[٢] وقوله : " واجتنبوا قول الزور " تعميم بعد تخصيص لشمول قول الزور جميع الأكاذيب الباطلة كأنه قال: فاجتنبوا عبادة الأوثان التي هي رأس الزور واجتنبوا قول الزول كله لا تقربوا منه شيئا لتماديه في القبح والسماجة وما ظنك بشيء من قبيل عبادة الأوثان ، ولذلك جمعا في قرن واحد[٣] ولما كان قول الزور معادلاً للكفر لم يعطف على الرجس بل أفرد بأن كرر له العامل اعتناء باجتنابه ، وفيه من التشديد والتوبيخ ما فيه[٤].

وهكذا يغلظ النص من جريمة قول الزور فيقرنها بالشرك ، وهو بذلك إنما يريد من الناس أن يميلوا عن الشرك كله ، وأن يجتنبوا الزور كله وأن يستقيموا على التوحيد الصادق الخالص " حنفاء لله غير مشركين به " والجملتان حالان من فاعل : " اجتنبوا " الأولى مؤسسة والثانية مؤكدة[٥] وهاتان الجملتان غاية في الإيجاز والتركيز فهما نتيجة لما سبق تقريره وتأكيده من وجوب إسلام الوجه لله وإخلاص العبادة له ، وعدم إشراك غيره معه في العبادة ، ولذا جاءت الجملتان الأولى مثبتة لتثبيت وتقرير الإخلاص لله وتوحيده ، وجاءت الثانية منفية لتوكيد الأولى وهما غاية في البلاغة فعند الأمر بالتوحيد أثبت وعند النهي عن الإشراك نفي ، ترغيبا وحثا

---

(١) الكشاف للزمخشري ٣ / ١٢ .
(٢) مفاتيح الغيب للفخر الرازي ١١ / ٢٧١ .
(٣) حاشية الشهاب ٦ / ٥١٢ وحاشية الجمل ٣ / ١٦٥ ، والبحر المحيط لأبي حيان ٧ / ٥٠٤ .
(٤) البحر المحيط لأبي حيان ٧/ ٥٠٥، وحاشية الشهاب ٥١٣/٦ .
(٥) الدر المصون ٥ / ١٤٦، وحاشية الجمل ٣ / ١٦٦ .

على توحيده ، وترهيبا ووعيداً لمن أشرك به تعالى ، ولذلك جاء التمثيل بتفظيع حال من يشرك بالله في مصيره بالشرك إلى حال انحطاط وتلقف الضلالات إياه ويأسه من النجاة مادام مشركا تمثيلا بديعا إذ كان من التمثيل المركب القابل لتفريق أجزائه إلى تشبيهات .

﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾.

فإن كان تشبيها مركبا : فكأنه قال : من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكا ليس بعده نهاية، بأن صور حاله بصورة حال من خر من السماء فاختطفته الطير فتفرق مزعا ــ قطعا ــ في حواصلها أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطاوح[١] البعيدة .

وإن كان مفرقا : فقد شبه الإيمان في علوه بالسماء ، والذي ترك الإيمان وأشرك بالله بالساقط من السماء ، والأهواء التي تتوزع أفكاره بالطير ، والشيطان الذي يطوِّح به في وادي الضلالات بالريح التي تهوى بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة[٢].

وقد عقب السمين الحلبي على كلام الزمخشري في تفريق التشبيه بقوله : " وهذه العبارة من أبى القاسم مما ينشطك إلى تعلم علم البيان بأنها في غاية البلاغة[٣] وقد احتوى التشبيه على الاحتباك حيث خَطْفُ الطير الملزوم للتقطع أولا دال على حذف التقطع ثانيا ، والمكان السحيق الملزوم لبلوغ الأرض ثانيا ، دليل على حذف ضده أولا[٤].

---

(١) في اللسان طوح ٢٧١٦/٤ وطوَّحه : بعث به إلى أرض لا يرجع منها .

(٢) راجع الكشاف ١٢/٣ والتحرير والتنوير م٧ جـ١٧ / ٢٥٤ ، وحاشية الجمل ١٦٦/٣ ، وحاشية زاده ٣٨٣/٣ .

(٣) الدر المصون للسمين الحلبي ١٤٧/٥ .

(٤) نظم الدرر للبقاعي ١٥٠/٥ .

وشبيه بهذا المثل قول سيدنا علي ــ ﷺ ــ إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ فلأن أَخِرَّ من السماء إلى الأرض أهون عليَّ من أن أكذب عليه... الحديث[١] ، فقد جعل ﷺ الخرور من السماء إلى الأرض ، وقيده بقوله : " من السماء إلى الأرض " لتظهر شدته وبُعد قعره ، ومدى ارتفاعه بحيث يصير الذي يَخِرُّ ليس متيقن الهلاك فحسب ، ولكنه متيقن مع الهلاك شدة العذاب الذي يعايشه في حال سقوطه واستمراره وقتا طويلا في هذا السقوط .

وفي استعماله ﷺ " أن " الشرطية التي تدل على الشك استبعاد كذبه ــ ﷺ ــ على رسول الله ﷺ فهو مَنْ هو في علو المقام، وطهارة الباطن واستقامة الظاهر ، وإنما جاء هذا التشبيه للترهيب من الكذب على رسول الله ﷺ والتخويف من عاقبته . وأفعل التفضيل " أهون " على بابه فالمشبه به وهو الخرور من السماء إلى الأرض مع ما فيه من الهلاك والفناء مع العذاب أهون وأيسر من الكذب على رسول الله ﷺ فهو ﷺ لم يشبه الخرور من السماء إلى الأرض بالكذب على رسول الله في سوء العاقبة ، وإنما جعل الخرور أهون وأيسر ، وفي ذلك غاية الترهيب والتخويف .

وهذا التشبيه الوارد في هذا الموطن شبيه بالتشبيه الوارد في الموطن الثاني في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا ... ﴾[٢] وبالتشبيه الوارد في الموطن التاسع في قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ﴾[٣] فالمواطن الثلاثة تشبه من يعبد غير الله

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطيه ١٢٠/٤ .
(٢) انظر ابن كثير ٢٢٠/٣ .
(٣) انظر روح المعاني للألوسي ١٦/١٢ .

تعالى بمن تفرق أمره ، وتشتت فكره، وتنازعته الأهواء وتطارحته الهموم حتى أفضت به إلى الهلاك والدمار والبوار .

وهذه الأمثلة المضروبة لمن يعبد غير الله تعالى خلاف المثل المضروب للموحد الذي تجرد وأخلص لله عبادته وكفر بغيره ولم يتخذ من دونه أندادا في قوله تعالى : ﴿ ... فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا ﴾ البقرة ٢٥٦[١].

و" أو " في هذا التشبيه " فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق " تفيد التخيير في نتيجة التشبيه كقوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ البقرة ١٩ أشارت الآية إلى أن الكافرين قسمان : قسم شِرْكُه ذبذبة وشك فهذا مشبه بمن اختطفته الطير فلا يستولى طائر على مُزْعَةٍ منه إلا انتهبها منه آخر ، فكذلك المذبذب متى لاح له خيال اتبعه وترك ما كان عليه ، وقسم مصمم على الكفر مستقر فيه فهو مشبه بمن ألقته الريح في واد سحيق . وهو إيماء إلى أن من المشركين من شِرْكُه لا يرجى منه خلاص كالذي تخطفته الطير ، ومنهم من شِرْكُه قد تخلَّص منه بالتوبة إلا أن توبته أمر بعيد عسير الحصول[٢].

والمشبه هو من يشرك بالله تعالى وهو أمر عقلي غير محسوس إذ الشرك والإيمان والصدق والكذب والنفاق والإخلاص كلها أمور معنوية والمشبه به حالتان : الأولى : الذي خَرَّ من السماء فتخطفه الطير ، والثانية : الذي هوت به الريح في مكان سحيق ، وهما حالتان غاية في شدة الهلاك والفناء الممتد المفعول حتى يعيش صاحبه الأهوال ، ويعايش الهلاك ، ولذا جاءت ألفاظ المشبه به دالة

---

(١) راجع المحرر الوجيز لابن عطيه ٤ / ١٢٠ .
(٢) التحرير والتنوير م٧ جـ١٧ / ٢٥٥ .

على القلق والاضطراب والهلاك والضياع والتفكك والتطـــاير وعـــدم الثبات مثل لفظ " خر من السماء " والخرور هو : الهَوِيُّ من علو إلى أسفل[١] وقيد الخرور بأنه " من السماء " ليدل على السرعة والقـــوة التي تُفْنِي ولا تُبْقِي ، وقوله: "فتخطفه الطير " والخطف هو الأخذ في سرعة واستلاب[٢] أي : تقطعه بمخالبها ، وقيل هـــذا عنـــد خـــروج روحه وصعود الملائكة بها إلى السماء الدنيا فلا يفتح لها فيرمى بها إلى الأرض[٣] وقيد الخطف بالطير ، لأنها الأخف والأسرع ولصعوبة مراقبتها ، وفي منعها شيء من الصـــعوبة وهـــي حالـــة مشـــاهدة محسوسة إذ خطف الحدأة لصغار الطيور شـــيء معـــروف يصـــعب تحاميه ، وقلما يجد وسيلة لتحاشـــيه ، ومـــا تخطفـــه يســـتبعد رده والإتيان به ، وفي فعلها التفريق والتمزيق لسرعة طيرانها ، وكثرة ارتيادها الأمكنة البعيدة . وفي إيثار المضـــارع " فتخطفـــه" إشـــعار باستحضار تلك الحالة العجيبة في مشاهد المخاطـــب تعجيبًـــا لـــه[٤] وقوله: "تهوى به الريح" والهَوِيُّ فيه معنى الخرور ولكـــن الخـــرور كان من نفسه : " خر من السماء " إذ هو فاعل الخرور ، وذلك حين أشرك باختياره ولم يؤمن ، أما الهوى فإن فاعله الريح وفيها معنـــى العذاب بضميمة السياق[٥] وحتى يزاد في معنى التفريـــق والتمزيـــق

---

(١) اللسان خرر ٢ / ١١٢٩ .
(٢) السابق خطف ٢ / ١٢٠٠ .
(٣) تفسير القرطبي ٧ / ١٣٦ .
(٤) روح المعاني للألوسي ١٢ / ١٧ .
(٥) وردت الريح في القرآن الكريم مضافة إلى ما فيه معنـــى الخيـــر كقوله تعالى : ﴿ حتى إذ كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبـــة ﴾ يونس ٢٢ ، ﴿ فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ﴾ ص٣٦ ، كما وردت مضافة إلى مـــا فيـــه معنـــى العـــذاب كقولـــه تعـــالى ﴿ كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفســـهم فأهلكتـــه ﴾ آل

جيء بقوله : "في مكان سحيق" والسحيق: فيها معنى تفتيت الشيء وسحقه كما فيها معنى بلاؤه وذهابه ومنه قيل : أسحق الضرع : يبس وبلى وارتفع لبنه وذهب ما فيه[١] وفيه معنى البعد أيضا[٢].

وهكذا نراه مشهداً يصور السقوط والتردي والبوار وكما يقول صاحب الظلال: " إنه مشهد الهَوِىُّ من شاهق " فكأنما خر من السماء " وفي مثل لمح البصر يتمزق : " فتخطفه الطير " أو تقذف به الريح بعيداً عن الأنظار : "أو تهوى به الريح في مكان سحيق " في هوة ليس لها قرار"[٣].

" والملحوظ هو سرعة الحركة مع عنفها ، وتعاقب خطواتها في اللفظ "بالفاء" وفي المنظر بسرعة الاختفاء على طريقة القرآن الكريم في التعبير بالتصوير " [٤] وهي صورة صادقة لحال من يشرك بالله فيهوى من أفق الإيمان السامق إلى حيث الفناء والانطواء إذ يفقد القاعدة التي يطمئن إليها، قاعدة التوحيد، ويفقد المستقر الآمن الذي يثوب إليه، فتتخطفه الأهواء تخطف الجوارح، وتتقاذفه الأوهام تقاذف الرياح، وهو لا يمسك بالعروة الوثقى، ولا يستقر على القاعدة الثابتة التي تربطه بهذا الوجود الذي يعيش فيه"[٥].

عمران ١١٧ ، ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب اشتدت به الريح في يوم عاصف ﴾ إبراهيم ١٨ . انظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقي ص٤١٤ ، وانظر : الريح والرياح في القرآن الكريم وفي كلام العرب بحث للأستاذ الدكتور على محمد حسن العماري هدية مجلة الأزهر شوال ١٤١٧هـ .

(١) اللسان مادة سحق ٣ / ١٩٥٦ .
(٢) المفردات للراغب ص٢٣٢ .
(٣) الظلال لسيد قطب ٤ / ٢٤٢١ .
(٤) الظلال لسيد قطب ٤ / ٢٤٢١.
(٥) السابق .

الموطن السادس

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ **الحج ٧٣ .**

لما ذكر تعالى أن الكفار يعبدون مالا دليل على عبادته لا من سمع ولا من عقل ، ويتركوا عبادة من خلقهم[١] ، ذكر ما عليه معبوداتهم من انتفاء القدرة على خلق أقل الأشياء بل على رد ما أخذه ذلك الأقل منه ، وفي ذلك تجهيل عظيم لهم حيث عبدوا من هذه صفته[٢] ، وهذه الآية متصلة بقوله : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[٣] ... [٤].

وهذه الآية ليست من قبيل التشبيه التمثيلي أو المركب وإنما المثل المقصود في هذه الآية معناه الحالة العجيبة المستغربة التي تندرج تحت " صدق أو لا تصدق " أن الكفار تركوا عبادتي ، وانحرفوا عن توحيدي ، وأنا المنعم المتفضل " ، وأنا المحي المميت"، وأنا الرازق والمانع وعبدوا آلهة غاية في العجز والضعف والحقارة والمهانة " وهذا أمر يثير الدهشة والاستغراب ويستدعي الوقوف عنده والتأمل فيه يقول الزمخشري [٥] : " فإن قلت : الذي جاء به ليس بِمَثَل فكيف سماه مثلا ؟ قلت : قد سُمِّيت الصفة أو القصة الرائعة المتلقاة بالاستحسان والاستغراب مثلا تشبيها لها

---

[١] انظر آيات السورة السابقة على آية الشاهد .
[٢] البحر المحيط لأبي حيان ٧ / ٥٣٧ .
[٣] الحج آية ٧١ .
[٤] تفسير القرطبي ٧ / ١٧٤ .
[٥] الكشاف للزمخشري ٣ / ٢٢ .

ببعض الأمثال المسيرة لكونها مستحسنة مستغربة عندهم " ومع أنه ليس داخلا في التشبيه والتمثيل إلا أنـــه أدى وظيفـــة التمثيـــل وزاد عليها ، فأمر عبادتهم الأصنام لغرابته ومنافاته للعقل والفطرة ينبغي أن يكون حديثا يتسامر به المتسامرون ، ويتهكم منه السامعون وأن يُطَبِّق الآفاق لغرابته وشهرته ، ولذا أخذ يعدد صفات هـــذه الآلهـــة المكذوبة ، والأرباب المزعومة، وهي كلها صـــفات ضـــعف وعجـــز ومهانة ، وعلى هذا الوجه يكون قد عبر عن دعواهم بأن لله تعـــالى شريكا بالمثل تشبيها لها بالمثل السائر في الغرابة فإن لفـــظ المثـــل حقيقة عرفية في القول السائر واستعارة فـــي الحالـــة المســـتغربة والقصة العجيبة ، نادى الله المشركين ليلقي إليهم حـــالا غريبـــة أو قصة رائعة عجيبة متلقاه بالإحسان والقبول وهي أنهم اتخذوا أعجز خلق الله تعالى وأذلهم شريكا في الألوهية واستحقاق العبادة جل عن ذلك وتعالى [١].

وجعل ابن عاشور[٢] هذا الوجه الذي قال بـــه الزمخشـــري تفسيـــــراً بمـــا لا نظير له ، ولا استعمال يعضده ، اقتصاداً منه في الغوص عن المعنى لا ضعفا عن استخراج حقيقة المثل فيها ، وهـــو جُذَيْعُها المُحَكَّك ، وعُزَيْقُها المُرَجَّب ، ولكن أحسبه صادف منه وقت سرعة في التفسير أو شغلا بأمر خطير وكم ترك الأول للآخر" .

وجعله تشبيها ضمنيا خفيا وذلك لأن المثل شاع في تشـــبيه حالة بحالة كما في قوله﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً ﴾البقـــرة ١٧، فالتشبيه في هذه الآية ضمني خفي ينبئ عنه قوله : ﴿ وَلَوِ اجْتَمَعُـــوا لَهُ﴾ وقوله : ﴿ لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِـــبُ وَالْمَطْلُـــوبُ ﴾ فشـــبهت

---

[١] حاشية زاده ٣ / ٣٩٤ .
[٢] التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور م٧ جـــ١٧ / ٣٤٠ .

الأصنام المتعددة المتفرقة في قبائل العرب وفي مكة بالخصوص بعظماء أي : عند عابديها ، وشبهت هيئتها في العجز بهيئة ناس تعذر عليهم خلق أضعف المخلوقات وهو الذباب بله المخلوقات العظيمة كالسماوات والأرض ، وقد دل إسناد نفي الخلق إليهم على تشبههم بذوي الإرادة ، لأن نفي الخلق بمقتضى محاولة إيجاده ، وقد رمز إلى الهيئة المشبه بما يذكر لوازم أركان التشبيه من قوله " لن يخلقوا " وقوله " وأن يسلبهم الذباب شيئا " ... لا جرم حصل تشبيه هيئة الأصنام في عجزها بما دون هيئة أضعف المخلوقات فكانت تمثيلية مكنية .

وكلام ابن عاشور في حمل الآية على التشبيه وجه لطيف ، ومعنى دقيق وليس هو أول من قال به ، بل قال به كثير من المفسرين ، كما أن كلام الزمخشري ليس كما قال ابن عاشور بأنه تفسير بما لا نظير له ولا استعمال يعضده وليس اقتصاداً من الزمخشري في الغوص عن المعنى . بل إن الرأيين مبثوثان في تضاعيف كتب المفسرين والآية تحتملهما يقول القرطبي [١] : " فإن قيل : فأين المثل المضروب ؟ ففيه وجهان : الأول : قال الأخفش : ليس ثمَّ مثل وإنما المعنى : ضربوا لي مثلا فاستعموا قولهم ، يعني : أن الكفار جعلوا لله مثلا بعبادتهم غيره ، فكأنه قال جعلوا لي شبيها في عبادتي فاستمعوا خبر هذا الشبه ، الثاني: قول القُتَبِيِّ : وأن المعنى : يا أيها الناس مثل من عبد آلهة لم تستطع أن تخلق ذبابا ، وإن يسلبها الذباب شيئا لم تستطع أن تنفذه منه ، وقال النحاس: المعنى : ضرب الله عز وجل ما يعبد من دونه مثلا قال : وهذا من أحسن ما قيل فيه ، أي : يبين الله لكم شبها ولمعبودكم " .

---

[١] تفسير القرطبي ٧ / ١٧٤ .

فالقرطبي وغيره من المفسرين[١] ذكروا الوجهين في الآيـــة وكل منهما له زاوية من الوجاهة واللطف ، فإن جعل تشبيها ضمنيا يكون قد شبهوا الأصنام مع عجزها وضعفها بالإله الخالق ، وفيه من تسفيه عقولهم ، وإصغار أمرهم ، واتفاقهم علـــى النـــزق والحمـــق والسذاجة ، وإن أريد بالمثل الحالة العجيبة التـــي تســـتغرب ، فـــلا أعجب ولا أغرب من أن يعبد المشركون الأصـــنام ويســـووها بـــالله تعالى، والمعنيان يتناصران ويتآذران في تجهيل الكفـــار ، والـــتهكم منهم والتعجيب من إقدامهم على هذا الأمر .

وقد تناصرت عناصر الأداء مع هذا المعنى ليكتمل المشـــهد وتتم الصورة، فتوالت الصفات التي تدل على عجـــز وضـــعف هـــذه الأصنام حيث وصفت بثلاث صفات .

الصفة الأولى : قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُـــوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾ فأكد الخبر بإن واسمية الجملـــة ، وأتـــى باســـم الموصول "الذين" للإيماء إلى نوع بناء الخبر " لن يخلقوا ذبابا ... " أو للتنبيه على خطئهم في هذا المعتقد الفاســـد ، والفعـــل الشـــنيع ، وعقَّبه بقوله " من دون الله " ليدل على دونية معتقـــدهم ، وســـفالة فعلهم ، وفي إظهار لفظ الجلالة مناداة عليهم بالغفلة ، وسوء التقدير فهذا اللفظ يجمع ما بين الترغيب والترهيب ، فهو صـــاحب الـــنعم " وهو الذي يُرْهَب ويُخْشَى ، والسياق هو الذي يحدد هذا أو ذاك ، ثم استعمال "لن" في قوله " لن يخلقوا " التي هي لنفي المســـتقبل نفيـــا مؤكداً ، وتأكيده للدلالة على أن خلق الذباب منهم مســـتحيل منـــافٍ

---

[١] انظر على سبيل المثال : البحر المحـــيط لأبـــي حيـــان ٥٣٧/٧ ، المحرر الوجيز لابن عطيـــة ١٣٣/٤ ، روح المعـــاني للألوســـي ١٢٩/١٢ حاشية الجمل ١٨٠/٣ .

لأحوالهم[١] . وأكد إثبات الخبر بإن وأكد ما فيه من نفي بلن لتنزيل المخاطبين منزلة المنكرين لمضمون الخبر، لأن جعلهم الأصنام آلهة، يقتضي إثباتهم الخلق إليها وقد نفى الخلق عنها في المستقبل[٢]، واختار الذباب لمهانته وضعفه ولاستقذاره وكثرته[٣] وهو في الوقت ذاته يحمل أخطر الأمراض ، ويسلب أغلى النفائس ، يسلب العيون والجوارح وقد يسلب الحياة والأرواح ، إنه يحمل ميكروب السل والتيفود والدوسينتاريا والرمد ... ويسلب مالا سبيل إلى استنقاذه وهو الضعيف الحقير[٤] ، وهو أجهل الحيوانات ، لأنه يرمي بنفسه في المهلكات ، ومدة عيشه أربعون يوماً ، وأصل خلقته من العفونات ثم يتوالد بعضه من بعض [٥] ، وخلق الذباب مستحيل كخلق الجمل والفيل ، لأن الذباب يحتوي على ذلك السر المعجز ، سر الحياة ، فيستوي في استحالة خلقه مع الجمل والفيل ، ولكن الأسلوب القرآني المعجز يختار الذباب الصغير الحقير لأن العجز عن خلقه يلقي في الحس ظل الضعف أكثر مما يلقيه العجز عن خلق الجمل والفيل دون أن يخلَّ هذا بالحقيقة في التعبير،وهذا من بدائع الأسلوب القرآني[٦].

واستحالة خلق الذباب من الالهة المدعاة متحقق حتى مع اجتماعهم وتآزرهم " ولو اجتمعوا له " وهي جملة حالية كأنه تعالى قال : يستحيل خلقهم الذباب حال اجتماعهم لخلقه وتعاونهم عليه ، فكيف حال انفرادهم ... [٧].

---

[١] الكشاف للزمخشري ٢٢/٣، والبحر المحيط لأبي حيان ٥٣٧/٧ .
[٢] التحرير والتنوير م٧ جـ١٧ / ٣٤١ .
[٣] تفسير القرطبي ١٧٥/٧ .
[٤] الظلال لسيد قطب ٤ / ٢٤٤٤ .
[٥] حاشية الجمل ٣ / ١٨١ .
[٦] الظلال لسيد قطب ٤ / ٢٤٤٤ .
[٧] الكشاف للزمخشري ٣ / ٢٢ وحاشية الجمل ٣ / ١٨١ .

الصفة الثانية : قوله : ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ وهي تضيف إلى العجز عجزًا وإلى المهانةِ مهانةً ، فهي بيان لعجزهم عن الامتناع عما يفعل بهم الذباب بعد بيان عجزهم عن خلقه[١] وذكر تعالى أمر سلب الذباب ، لأنه كان كثيرا محسوسا عند العرب ، وذلك أنهم كانوا يضمخون أوثانهم بأنواع الطيب ، فكان الذباب يذهب بذلك وكانوا متألمين من هذه الجهة فجعلت مثلا[٢] ، وفي تكرير لفظ الذباب ثلاث مرات ، مرتان بالاسم الظاهر ، ومرة بالإشارة إليه في قوله : ﴿ ... وَالْمَطْلُوبُ ﴾ نص على ضعفه وحقارته بدلالة السياق ، ومع ذلك لا يستطيعون استجلاب ما أخذه ، ولا رد ما نهبه ، وفي هذا دليل على غاية ضعف هذه الآلهة وعجزها . يقول الزمخشري [٣] وهذا من أبلغ ما أنزله الله في تجهيل قريش واستركاك عقولهم والشهادة على أن الشيطان قد خزمهم بخزائمه حيث وصفوا بالإلهية التي تقتضي الاقتدار على المقدورات كلها والإحاطة بالمعلومات عن آخرها صورا وتماثيل يستحيل منها أن تقدر على أقل ما خلقه الله وأذله ، وأصغر، وأحقره ، ولو اجتمعوا لذلك وتساندوا ، وأدل من ذلك على عجزهم وانتفاء قدرتهم أن هذا الخلق الأقل الأذل لو اختطف منهم شيئا فاجتمعوا على أن يستخلصوه منه لم يقدروا " .

الصفة الثالثة : قوله : ﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ وهي نتيجة مترتبة على الصفتين السابقتين فهي حكم عام مأخوذ منها ، وهي تذييل وفذلكة للغرض من التمثيل"[٤].

---

[١] تفسير أبي السعود ٤ / ٤٥ .
[٢] المحرر الوجيز لابن عطية ٤ / ١٣٤ .
[٣] الكشاف للزمخشري ٣ / ٢٣ .
[٤] التحرير والتنوير م٧ جـ١٧ / ٣٤٢ .

وقد قالوا : إن الطالب الصنم والمطلوب الذباب ، أي : عجز الطالب ــ وهو الآلهة ــ أن تستنقذ من الذباب ما سلبها إياه وهو الطيب وما أشبهه ، والمطلوب الذباب ، وهذا أولى الأقوال لأن ذلك في سياق الخبر عن الآلهة والذباب، فأنْ يكون ذلك خبراً عما هو به متصل أشبه من أن يكون خبرا عما هو عنه منقطع وإنما أخبر جل ثناؤه عن الآلهة بما أخبر به عنها في هذه الآية من ضعفها ومهانتها تقريعا منه بذلك عبدتها من مشركي قريش ، أي : كيف يجعل لي مثل في العبادة ويشرك فيها معي ما لا قدرة له على خلق ذباب ، وإن أخذ له الذباب فسلبه شيئا عليه لم يقدر أن يمتنع منه ولا ينتصر، وأنا الخالق ما في السموات والأرض ، ومالك جميع ذلك والمحي من أردت ، والمميت ما أردت ومن أردت ؟!! إن فاعل ذلك لاشك أنه في غاية الجهل [١].

وفي هذه الجملة تسوية بين الآلهة المدَّعاة وبين الذباب في الضعف، ولو حققت وجدت الطالب ــ وهو الصنم ــ أضعف وأضعف، لأن الذباب حيوان وهو جماد وهو غالب وذاك مغلوب[٢].

وفيه وجه آخر لا يقل عن الثاني قوة : وهو أن الطالب من عبد الصنم والمطلوب نفس الصنم أو عبادتها وجعله الرازي[٣] ، أقرب إلى السياق لأن كون الصنم طالبا ليس على حقيقته بل هو على سبيل التقدير أما ههنا فعلى سبيل التحقيق ، لكن المجاز فيه حاصل لأن الوثن لا يصح أن يكون ضعيفاً لأن الضعف لا يجوز إلا على من يصح أن يقوى .

---

[١] جامع البيان للطبري ٢١٤/١٧ ، وانظر الكشاف للزمخشري ٢٣/٣ ، وابن كثير ٢٣٦/٣ ، وروح المعاني للألوسي ١٣٢/١٢.

[٢] الكشاف للزمخشري ٢٣/٣ .

[٣] مفاتيح الغيب للفخر الرازي ١١ / ٣٢٧ ، وابن كثير ٣ / ٢٣٦ .

وقالوا : إن معنى " ضعف " لا من حيث القوة ولكن لظهور قبح هذا المذهب [١].

وعلى كل الوجوه يظهر ضعف هذه الآلهة ، وأن المهانة والعجز والذلة تلازمها في الحقيقة والواقع ، وأن التشبيهات الواردة فيها ــ ومنها هذا التشبيه ــ إنما تكشف هذا الواقع وتظهره لعابديها حتى يرجعوا عن هذه العبادة ، التي هذه صفتها ، وتلك واقعها ، كما تكشفها لغير عابديها من المؤمنين حتى يحمدوا الله على ما هم فيه من نعمة الإسلام وصدق الله العظيم : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ آل عمران :٨٥.

---

[١] مفاتيح الغيب للفخر الرازي ١١ / ٣٢٧ .

الموطن السابع

قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّـهِ أَوْلِيَـاءَ كَمَثَـلِ العَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ البُيُوتِ لَبَيْتُ العَنكَبُوتِ لَوْ كَـانُوا يَعْلَمُـونَ﴾ العنكبوت ٤١ .

لما بين الله عاقبة الأمم التي اتخذت الأصنام آلهة من دون الله تعالى ، فما أغنت عنهم آلهتهم لما جاءهم عذاب الله [١] ، وأنه أهلك من أشرك عاجلاً وعذب من كذب آجلاً ، ولم ينفعه في الدارين معبوده ، ولم يدفع ذلك عنه ركوعه وسجوده ، مثل اتخاذه ذلك معبودا باتخاذ العنكبوت بيتا لا يجير آويا ولا يريح ثاويا[٢].

والآية تبين عجز وضعف الآلهة المدعاة ، وعدم نفعها للعابدين لها ، وتجمع كثيراً من عناصر الأداء حتى تكشف عن هذه الحقيقة ، وتوضح تلك الظاهرة التي فشت وانتشرت في بلاد العرب انتشار النار في الهشيم ، ومن أهم هذه العناصر هذا التشبيه وهو عنصر فاعل في الأداء الأسلوبي وأول ما تلحظه فيه لفظة " العنكبوت " والتي هي جزء من المشبه به ، والتمثيل بها مقصود لأنها حشرة موحشة تؤذي المشاعر مع عدم إيذائها ، وأنثى العنكبوت كما ثبت في العلم الحديث تقتل زوجها بعد التلقيح ، كذلك تقتل كل الذكور بعد الإنجاب عدا ذكرًا واحدًا تبقيه للتلقيح[٣] ، وعبر عنها بالتأنيث " اتخذت " وإن كانت تقال بالتذكير تعظيماً لضعفها[٤] كما أن لفظ "

---

[١] انظر آيات سورة الحج ١٥ ــ ٤٠ .

[٢] مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٢ / ٣٩٦ ، والتحرير والتنوير م ٨ جـ٢٠ ص٢٥٢ .

[٣] روح المعاني للألوسي ١٤ / ١٦٩ كلام المحقق طه عبد الرءوف سعد بالهامش .

[٤] نظم الدرر للبقاعي ٥ / ٥٦٠ .

اتخذت " فيه من التكلف الذي يناسب التكلف في عبادة غير الله تعالى[١]، وتكرار لفظ البيت ثلاث مرات مرة مفرداً نكرة "بيتا" ليدل على الجنس ومرة مجموعا ليدل على العموم ، ومرة مضافا للعنكبوت وكلها تفيد الضعف والوهن ويؤكد هذا المعنى استعمال الإظهار في مقام الإضمار إذ الظاهر أن يقال : والحال أنه أوهن البيوت ، ولكنه أظهر للتعميم فقال: أوهن البيوت [٢].

وقد ذكر الزمخشري[٣] أن الغرض من التشبيه هو ما اتخذوه متكلاً ومعتمدا في دينهم ، وتولوه من دون الله بما هو مثل عند الناس في الوهن وضعف القوة وهو نسج العنكبوت ، ألا ترى إلى مقطع التشبيه ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ البُيُوتِ لَبَيْتُ العَنكَبُوتِ ﴾ ، وذكر أربعة أوجه للتشبيه فقال : " فإن قلت: ما معنى قوله : ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ وكل أحد يعلم وهن بيت العنكبوت ؟ قلت معناه : لو كانوا يعلمون أن هذا مثلهم وأن أمر دينهم بالغ هذه الغاية من الوهن، ووجه آخر : وهو أنه إذا صح تشبيه ما اعتمدوه في دينهم ببيت العنكبوت ، وقد صح أن أوهن البيوت بيت العنكبوت فقد تبين أن دينهم أوهن الأديان لو كانوا يعلمون ، أو أخرج الكلام بعد تصحيح التشبيه مخرج المجاز فكأنه قال : وإن أوهن ما يعتمد عليه في الدين عبادة الأوثان لو كانوا يعلمون ، ولقائل أن يقول : مثل المشرك الذي يعبد الوثن بالقياس إلى المؤمن الذي يعبد الله مثل عنكبوت يتخذ بيتا بالإضافة إلى رجلٍ يبني بيتاً بآجر وجص أو ينحته من صخر وكما أن أوهن

---

[١] السابق .
[٢] السابق .
[٣] الكشاف للزمخشري ٣ / ٢٠٦ .

البيوت إذا استقربتها بيتًا بيتًا بيت العنكبوت ، كذلك أضعف الأديان إذا استقربتها دينًا دينًا عبادة الأوثان لو كانوا يعلمون"[١].

وهذا النص الذي ذكره الزمخشري في هذا التشبيه جعله العلماء عمدتهم وتوركوا عليه توضيحا وبسطا بما لا يخرج عن معناه فعلى الوجه الأول: هو تشبيه مركب في الهيئة المنتزعة كما أشار إليه بقوله " اتخذوه متكلا ومعتمدا بذكر الاتخاذ والمتخِذ والاتكال عليه ، وعليه يكون أولياؤهم بمنزلة نسج العنكبوت في ضعف الحال وعدم الصلاحية للاعتماد ، ويكون قوله : " إن أوهن البيوت لبيت العنكبوت " تذييل يُعرِّف الغرض من التشبيه ولذا استشهد به فقال : ألا ترى... وقوله : " لو كانوا يعلمون " إيغال في تجهيلهم لأنهم لا يعلمونه مع وضوحه لدى من له أدنى مسكة[٢].

والوجه الثاني مثل الأول في أنه تشبيه مركب حيث شبه هيئة عبادة الأصنام بهيئة بيت العنكبوت ولما كان بيت العنكبوت أوهن البيوت تبين أن دينهم أوهن الأديان ، ويكون قوله ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ﴾ مقدمة مقصودة والنتيجة مطوية في قوله : ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ لأنه لنفي جهلهم بالمقصود[٣].

والوجه الثالث : من قبيل التشبيه المركب أيضا ويكون قوله ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ﴾ استعارة تمثيلية تقرر الغرض بتبعية تقرير المشبه وجاء به ليدل به على تقرير المشبه[٤].

---

(١) الكشاف للزمخشري ٣ / ٢٠٦.
(٢) حاشية الشهاب الخفاجي ٧ / ٣٥١ .
(٣) السابق .
(٤) حاشية الشهاب الخفاجي ٧ / ٣٥١.

أما الوجه الرابع : فهو وجه مستقل مبني على تفريق التشبيه ، فيكون قابل المشرك بالعنكبوت وقابل عبادة الوثن ببيت العنكبوت ، والبلاغيون يطلقون على التشبيه المركب الذي يجوز تفريقه تشبيه مفرد بمفرد أي أن جزئياته المفردة يصح أن يقابل بعضها ببعض ولا يقصدون بقولهم تشبيه مفرد بمفرد بأنه من قبيل محمد كالأسد وما شابه ، لكن الشهاب الخفاجي[١] وغيره يفضلون أن يكون من تشبيه المفرد لأن المقصود بيان حال العابد والمعبود.

ومجمل الكلام في هذا التشبيه أنه يصح أن يكون من قبيل تشبيه الهيئة بالهيئة ، ويكون قد شبَّه حال من اتخذ الأصنام أولياء وعبدها واعتمد عليها راجيا نفعها وشفاعتها بحال العنكبوت التي اتخذت بيتا لا يغني عنها في حر ولا برد ولا مطر ولا أذى ... فلذلك الكافر لم يحصل له باتخاذه الأصنام آلهة شيئا من معاني الآلهة ... وهو من تشبيه المركب بالمركب لأن في كل واحد من الطرفين اتخاذ ومتخذ واتكالا عليه ، وعدم ترتب شيء من المعاني المطلوبة من المعتمد عليه على اتخاذه ، فإن العنكبوت وإن انتفع بنسجه لكن تلك المنفعة ليست من المنافع المطلوبة في البيت ، ويصح أن يكون من التشبيه المركب الذي يجوز تفريقه والغرض، إبراز تفاوت المتخذين والمتخذ مع تصوير توهين أمر أحدهما وإدماج تقوية الآخر[٢].

وهو تشبيه بديع من مبتكرات القرآن كما يقول ابن عاشور[٣].

---

[١] السابق ٧ / ٣٥٢ ، وانظر حاشية الشيخ زاده ١٣/٤ ، ٤٤٤/٢ ، وانظر هذا البحث الموطن الأول ص .

[٢] حاشية الشيخ زاده ٤ / ١٣ .

[٣] التحرير والتنوير لابن عاشور م٨ ، جـ٢٠ / ٢٥٢ .

وجملة : ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ﴾ جملة حالية تبين حال بيت العنكبوت في عدم نفعه ، وفي إضافة البيت إلى العنكبوت ، هذا المخلوق الضعيف بيان لشدة ضعفه ، وقوة عجزه ، وفيه بيان لوجه الشبه أيضاً إذ وجه الشبه الضعف في كلا الطرفين ، الآلهة المتخذة من دون الله ، وبيت العنكبوت ، والمتأمل يجد أن المشبه أشد ضعفا من المشبه به وهو بيت العنكبوت أي أن وجه الشبه في المشبه أقوى منه في المشبه به ، لأن بيت العنكبوت مع أنه لا يجير آوياً ولا يريح ثاويا إلا أنه أجدى فائدة وأكثر منفعة ، فبدهي أن عبادة الأصنام لا منفعة لها ، ولا فائدة ترجى من وراء عبادتها أما بيت العنكبوت فإنه مهما ظهر ضعفه وبان عجزه إلا أنه للعنكبوت قد يمثل شيئاً ما ، ولذا يقول البيضاوي[١] : "مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء" فيما اتخذوه معتمدا ومتكلا : "كمثل العنكبوت اتخذت بيتا " مما نسجته في الوهن والخور بل ذاك أوهن فإن لهذا حقيقة وانتفاعاً عاماً " ويعلق الشهاب على قوله : "بل ذاك أوهن " بقوله : " هذا لا ينافي كون وجه الشبه في المشبه به أقوى لأنه من تشبيه المعقول بالمحسوس ووهن المعقول معقول غير محسوس لامتناع قيام المحسوس به فهو من هذا الوجه في المشبه به أقوى ، وإن كان في المشبه أقوى من وجه آخر"[٢] ثم أشار بأن اشتراط قوة وجه الشبه في المشبه به ليس بصحيح كما قال بذلك أهل المعاني بل يكتفي بكونه أشهر ، وبيت العنكبوت مشهور بذلك متعارف ضرب به المثل [٣].

---

[١] البيضاوي بهامش حاشية الشهاب ٧ / ٣٥٢ .
[٢] حاشية الشهاب ٧ / ٣٥٢ .
[٣] حاشية الشهاب ٧ / ٣٥٢ ، وتفسير أبى مسعود ٤ / ٣٣٨ .

كما أن هذه الجملة تجري مجرى المثل يضرب لقلة جدوى شيء فاقتضى ذلك أن الأديان التي يعبد أهلها غير الله هي أحقر الديانات وأبعدها عن الخير والرشد وإن كانت متفاوتة فيما يعرض لتلك العبادات من الضلالات كما تتفاوت بيوت العنكبوت في غلظها بحسب تفاوت الدوبيات التي تنتجها في القوة والضعف [١].

---

[١] التحرير والتنوير م٨ جـ٢٠ / ص٢٥٣ .

الموطن الثامن

قوله تعالى في سورة الروم : ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ الآية ٢٧ .

ومناسبة الآية لما قبلها أنه : " اتبع ضرب المثل لإمكان إعادة الخلق عقب دليل بدئه يضرب مثل لإبطال الشرك عقب دليليه المتقدمين في قوله تعالى : ﴿يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ ﴾ وقوله ﴿ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ الآية ١٩ لينظم الدليل على هذين الأصلين المهمين أصل الوحدانية وأصل البعث وينكشف بالتمثيل والتقريب بعد نهوضه بدليل العقل والخطاب للمشركين [١].

وهذا المثل تشبيه هيئة مركبة بهيئة مركبة شبهت الهيئة المنتزعة من زعم المشركين أن الأصنام شركاء لله في التصرف دافعون عن أوليائهم ما يريده الله من تسلط عقاب أو نحوه إذ زعموا أنهم شفعاؤهم عند الله وهم مع ذلك يعترفون بأنها مخلوقة لله فإنهم يقولون في تلبيتهم " لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك " هذه الهيئة شبهت بهيئة ناس لهم عبيد صاروا شركاء في أرزاق سادتهم شركة على السواء فصار سادتهم يحذرون إذا أرادوا أن يتصرفوا في تلك الأرزاق أن يكون تصرفهم غير مرض لعبيدهم ، وهذا التشبيه وإن كان منصرفا لمجموع المركب من الهيئتين قد بلغ غاية كمال نظائره إذ هو قابل للتفريق في أجزاء ذلك المركب بتشبيه مالك الخلق كلهم بالذين يملكون عبيداً ، وتشبيه الأصنام التي هي مخلوقة لله تعالى بمماليك الناس وتشبيه تشريك الأصنام في التصرف مع الخالق

---

[١] التحرير والتنوير م٨جـ٢١/٨٥،ونظم الدرر للبقاعي ٦١٩/٥ .

في ملكه بتشريك العبيد في التصرف في أرزاق سادتهم وتشبيه زعمهم عدول الله عن بعض ما يريده في الخلق لأجل تلك الأصنام وشفاعتها بحذر أصحاب الأرزاق من التصرف في حظوظ عبيدهم الشركاء تصرفاً يأبونه ، فهذه الهيئة المشبه بها هيئة قبيحة مشوهة في العادة لا وجود لأمثالها في عرفهم فكانت الهيئة المشبهة منغية منكرة ولذلك أدخل عليها استفهام الإنكار والجحود لينتج أن الصورة المزعومة للأصنام صورة باطلة بطريق التصوير والتشكيل إبرازاً لذلك المعنى الاعتقادي الباطل في الصورة المحسوسة المشوهة الباطلة [١].

وهذا المثل محسوس مشاهد إذ في الناس أحرار وعبيد والحر السيد لا يقبل أن يكون عبده شريكا له في ماله يشاركه التصرفات ويرجع إليه في جميع الأمور كنفسه وقد قيد المثل بقوله : " من أنفسكم " لأنها أقرب الأمور إليهم يشاهدونها ويعايشونها والمحسوس يبين ويوضح مالا يوضحه المعقول[٢] ، والمراد نفي الأشياء الثلاثة ـــ الشركة ـ والاستواء مع العبيد ـ وخوفهم إياهم ، وليس المراد ثبوت الشركة ونفي الاستواء والخوف [٣].

والمثل لابد أن يشابه الممثل به من وجه ويخالفه من وجه آخر ووجه المشابهة ههنا ظاهر وهو إشراك الأصنام مع الله في العبادة وإشراك العبيد مع أسيادهم في الرزق فكما أن الصورة الثانية مرفوضة فينبغي أن تكون الصورة الأولى مرفوضة من باب أولى أما وجه المخالفة فقد أشير إليه بوجوه الأول : أشير إليه بقوله : " من أنفسكم "

---

[١] التحرير والتنوير م ٨ جـ٢١ / ٨٦ .
[٢] راجع الجمل ٣/٣٩٠ ، وحاشية الشهاب ٧ / ٣٨٨ .
[٣] حاشية زاده ٤ / ٢٦ ، وحاشية الجمل ٣ / ٣٩١ .

يعني : ضرب لكم مثلا من أنفسكم مع حقارتها ونقصانها وعجزها وقاس نفسه عليكم مع عظمها وكمالها وقدرتها [١].

الثاني : قوله " مما ملكت إيمانكم " والواقع أن هذا الملكية قد تزول ومملوك الله لا خروج له من ملك الله بوجه من الوجوه ، إذا لم يجز أن يكون مملوك يمينكم شريكا لكم مع أنه يجوز أن يصير مثلكم في جميع الوجوه ، فكيف يجوز أن يكون مملوك الله الذي هو مملوكه من جميع الوجوه شريكا له ،

والثالث : أشير إليه بقوله " من شركاء فيما رزقناكم " يعني الذي لكم هو في الحقيقة ليس لكم بل هو من الله ومن رزقه ، والذي من الله فهو في الحقيقة له فإذا لم يجز أن يكون لكم شريك في مالكم من حيث الاسم فكيف يجوز أن يكون له شريك فيما له من حيث الحقيقة[٢].

وجاء قوله " تخافونهم كخيفتكم أنفسكم " ليؤكد على نفي هذه الحالة ورفضها فلن تقبلوا أن تستووا مع من تملكونهم في التصرف وأن تخافوهم كخيفة الشركاء الأحرار المساهمين فكيف ترضونه بخالقكم وفي هذه الشركاء التي زعمتموها فتسوونها به وهي من أضعف خلقه ألا تستحيون ؟ [٣]

ولما كان هذا المثال في الذروة من الكمال كان السامع جديراً بأن يقول : جل الله !! ما أعلى شأن هذا البيان !! هل يبين كل شيء هكذا ؟ فقال : " كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون " وخص العقلاء بالذكر مع عموم تفصيل الآيات للكل لأنهم المنتفعون بها[٤] ، وإشارة إلى أنهم

---

[١] حاشية زاده ٤ / ٢٦ ، مفاتيح الغيب للفخر الرازي ١٢ / ٤٦٧ .
[٢] مفاتيح الغيب للفخر الرازي ١٢ / ٤٦٨ ، وحاشية زاده ٤ / ٢٦ .
[٣] نظم الدرر للبقاعي ٥ / ٦٢٠ .
[٤] تفسير أبي السعود ٤ / ٣٦٢ .

إن لم يعملوا بمقتضى ذلك كانوا مجانين لأن التمثيل يكشف المعاني بالتصوير والتشكيل كشفا لا يدع لبسا فمن خفى عليه لم يكن له تمييز[١]، وذكر العلامة الطيبي أنه لما كان ضرب الأمثال لإدناء التوهم إلى العقول ، وإراءة المتخيل في صورة المحقق ناسب أن تكون الفاصلة " لقوم يعقلون"[٢] وفي هذا تعريض للمتصلبين في شركهم بأنهم ليسوا من أهل العقول ، وليسوا ممن ينتفعون بها [٣].

ورائحة التوبيخ والإنكار تسري في جنبات المثل كله فقد وبخ الله المشركين الذين يجعلون له من خلقه آلهة يعبدونها وأشركوهم في عبادتهم إياه ، وهم مع ذلك يقرون بأنها خلقه وهم عبيده ، وعيَّرهم بفعلهم ذلك[٤] ، وقد ذكر القرطبي[٥] أن هذه المسألة ــ أي التمثيل ـــ أفضل للطالب من حفظ ديوان كامل في الفقه ، لأن جميع العبادات البدنية لا تصح إلا بتصحيح هذه المسألة في القلب "ومراد القرطبي أن هذا التمثيل يحرك العقل وينبه القلب ويوقظ الفؤاد لكي يحقق الأمر ويصحح الخطأ إذ ليس مقبولا أن يرفض الإنسان مساواة عبده تحت إمرته ورهن إشارته وطوع هواه في التصرف معه في ماله ويقبل أن يتخذ مع الله آلهة تعبد وهي أكثر عجزا وأظهر ضعفا من هذا المملوك الذي رفضه سيده أن يكون شريكا له في التصرف .

---

[١] نظم الدرر للبقاعي ٥ / ٦٢٠ .
[٢] روح المعاني للألوسي ١٤ / ٢٥٠ .
[٣] التحرير والتنوير م٨ جـ١ / ٨٧ .
[٤] جامع البيان للطبري ٢١ / ٥٠ .
[٥] ٦٦/٨ .

الموطن التاسع

قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ **الزمر : ٢٩ .**

لما بالغ تعالى في شرح وعيد الكفار في قوله : ﴿ قُلْ إِنَّ الخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ أَلاَ ذَلِكَ هُوَ الخُسْرَانُ المُبِينُ * لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴾ ...

﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ العَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ ﴾ .

﴿ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ العَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ * فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الخِزْيَ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾[١]

أردفه بذكر مثل يدل على فساد مذهبهم وقبح طريقتهم فقال : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً ﴾[٢] **والآية احتوت مثلين الأول في قوله :** ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ ﴾ **وهو تمثيل لحال المشرك بالله الذي يعبد آلهة شتى برجل من المماليك قد اشترك فيه شركاء بينهم خلاف وتنازع كل واحد منهم يدَّعى أنه عبده فهم يتجاذبونه ويتعاورونه في مهنٍ شتى ومشادة ، وإذا عنَّت له حاجة تدافعوه فهو متحير في أمره سادر ، قد تشعبت الهموم قلبه وتوزعت أفكاره لا يدري أيهم يُرضي بخدمته وعلى أيهم يعتمد في حاجاته[٣] ووجه الشبه هو الحيرة والاضطراب والقلق والاكتئاب وعدم الراحة والاستقرار ومن خصائص هذا المثل : أنه لما كانت معبوداتهم لكونها من جملة المخلوقات كثيرة الأشباه والنظائر**

---

[١] راجع الآيات ١٥ ــ ٢٦ .
[٢] راجع مفاتيح الغيب للفخر الرازي ١٣ / ٤٣٧ .
[٣] الكشاف للزمخشري ٣ / ٣٩٦ .

عبر عنها بجمع الكثرة فقال " شركاء " في الظاهر من الأصنام وفي الباطن من الحظوظ والشهوات[١] ووصف الشركاء بأنهم " متشاكسون " وهذه اللفظة لم تأت في القرآن الكريم إلا في هذا الموطن [٢] ومعناها : السيء الخلق[٣] ، وهي تدل على غاية الاختلاف والتناقض وعدم التجاوز والمسامحة للشريك مع شريكه وللشريك مع هذا المملوك ، وحتى لو كان الشركاء غير متشاكسين لحدث خُلْف وعدم رضى تام مما يؤدي إلى حيرة واضطراب هذا المملوك فكيف بهم إذا كانوا متشاكسين؟!! .

والثاني في قوله: ﴿ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ ﴾ وهو مقابل للمثل الأول ، وهو تمثيل لحال المسلم الموحد يقوم بما كلفه ربه عارفا بمرضاته مؤملا رضاه وجزاءه مستقر البال بحال العبد المملوك الخالص لمالك واحد ، قد عرف مراد مولاه وعلم ما أوجبه عليه ، فهمه واحد وقلبه مجتمع[٤] ، وهو مثل في غاية الحسن في تقبيح الشرك وتحسين التوحيد[٥]، مع أنه غير منطبق على عبدة الأصنام تماماً ، لأنها جمادات لا يتصور منها المنازعة والتشاكس ، لكن تشبيه شيء بآخر لا يستدعي أن يكون وجه الشبه حالة موجودة في كل واحد من المشبه والمشبه به تحقيقا ، بل يكفي وجودها في أحد الطرفين أو في كليهما على سبيل التخييل والتأويل كما في قوله :

وكأن النجوم بين دجاها ... سنن لاح بينهن ابتداع

---

[١] نظم الدرر للبقاعي ٦ / ٤٤٣ .
[٢] المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقي ص٤٩١ .
[٣] لسان العرب لابن منظور مادة شكس ٤ / ٢٣٠٨ .
[٤] التحرير والتنوير م٩ جـ٢٣ / ٤٠١ .
[٥] مفاتيح الغيب للفخر الرازي ١٣ / ٤٣٨، وحاشية زاده ٢٠٢/٤ .

فإن وجه الشبه في هذا التشبيه هو الهيئة الحاصلة من حاصل أشياء مشرقة في جوانب شيء مظلم ، فهذه الهيئة غير حاصلة في المشبه به وهو السنن بين الابتداع إلا على سبيل التخييل فإن السنن والبدع ليستا من قبيل الأجسام حتى توصفا بالإشراق والإظلام حقيقة وكذا وجه التمثيل بين المشرك والعبد الذي فيه شركاء متشاكسون ، وكون أمر المحتاج المشرك موكلا إلى عناية الشركاء المتشاكسون وكونه متحيراً في أمره بناءً على أنه كلما أرضى هو أحدهم غضب الباقون ، وإذا احتاج في مهم إليهم فكل واحدٍ يرده إلى الآخر فإنه لا يوجد في المشبه الذي هو المشرك إلا على سبيل التخييل [١].

ووجه الشبه عندما يكون متحققا في أحد طرفي التشبيه وفي الآخر على جهة التخييل والتأويل ، تتجلى فيه إبداعات الأدباء وابتكاراتهم وتجويدهم في الصورة التشبيهية " لكن إذا بعدنا عن دائرة الواقع وسلكنا طريق التخيل والتوهم فحينئذ يمكن للخيال أن يعطي للمعقول صفة المحسوس فيجعل ما ليس بمتلون متلوّنا ، ومالا يقبل إلا تساع متسعا ، ومالا يتصف بالحلاوة حلوا ... إلخ ويقرر ذلك في النفس حتى يصير عندها كالحقيقة ، ولكن على أساس قوي يجعل النفس مستريحة إليه متقبلة له . [٢]

هذا في كلام البشر ، أما في كلام رب البشر فهو النموذج المثالي للإبداع والحسن ، وهو النموذج الأول في التجويد وتخير عناصر الأداء الأسلوبي التي تجعل السامع يخر ساجداً مردداً ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً ﴾ النساء ٨٢ .

---

[١] حاشية الشيخ زاده ٥ ــ ٤ / ٢٠٢ .

[٢] الإفصاح عما تضمنه الإيضاح من مباحث البيان للأستاذ أحمد محمد الحجار ص٣١ ، دار الاتحاد العربي للطباعة ــ من دون .

ولفظة " رجل " تكررت في هذا المثل ثلاث مرات مرة عندما ضرب مثلا لمن عبد مع الله غيره ، ومرتان عندما ضرب مثلا لمن وحد الله تعالى ، وقد خص الرجل دون الصبي أو المرأة لأنه أفطن للضر والنفع[١] لأن الرجل المملوك أفطن لما يلحق به من تشاكس الملاك من المرأة والصبي وكذا الرجل المالك أفطن لما يعود إليه من تفرد المملوك واختصاصه بخدمته ، وكونه مشتركا بين شركاء يستخدمه كل واحد منهم والمرأة والصبي قد يغفلان عن ذلك [٢].

وهذا التشبيه إنما هو واقع محسوس مشاهد للناس ، إذ يرون أن العبد الذي يتملكه أشخاص كثيرون يحدث له قلق واضطراب وحيرة لعدم استطاعته أن يوفق بين حاجاتهم ورغباتهم فما الظن إذا كانوا سيئي الخلق مختلفين ، فإنه يقع عليه عبء أكثر ، وينزل به ضرر كبير وهذا المثل يشبه قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ الأنبياء : ٢٢ .

وقوله تعالى : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ المؤمنون ٩١.

كما أن العبد الخالص لخدمة سيد واحد يتجه فكره وعقله إلى شيء واحد لا يشغله عنه شاغل ، ولا يصرفه صارف وكذلك العبد الموحد لله تعالى لا يشغل عن توحيد وعبادة غير الله تعالى فهدأت جوارحه واطمأن قلبه ووثق بالله تعالى .

ولأجل هذه الحقيقة المتقررة في الأذهان عقب المثل بقوله : ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ﴾ والاستفهام يحمل معنى الإنكار والاستبعاد

---

[١] انظر تفسير الكشاف للزمخشري ٣٩٦/٣ وحاشية الشهاب الخفاجي مع تفسير البيضاوي عليه ٢٠٠/٨ .
[٢] حاشية الشيخ زاده ٤ / ٢٠٢ .

لاستوائهما ونفيٌ له على أبلغ وجه وآكده وإيذان بأن ذلك من الجلاء والوضوح بحيث لا يقدر أحد أن يتفوه باستوائهما أو يتلعثم في الحكم بتباينهما ضرورة أن أحدهما في أعلى عليين والآخر في أسفل سافلين[١] وقوله : ﴿ الحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أي : على عدم استواء هذين المثلين ، والجملة اعتراضية فإن قوله ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ إضراب انتقالي مرتبط بقوله ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ ﴾[٢] وفيها قصر الحمد عليه تعالى فهو الذي ثبتت وحدانيته ، ولفظة " الحمد لله " تشعر بوقوع الهلاك بهم كقوله تعالى : ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ القَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ الأنعام ٤٥[٣] ، فهي تعريض بهم وهي تقرير لما قبله من نفي الاستواء بطريق الاعتراض وتنبيه للموحدين على أن مالهم من المزية بتوفيق الله تعالى ، وأنها نعمة جليلة موجبة عليهم أن يداوموا على حمده وعبادته أو على أن بيانه تعالى بضرب المثل أن لهم المثل الأعلى وللمشركين مثل السوء ... " [٤].

---

[١] تفسير أبي السعود ٤ / ٦١٢ .
[٢] حاشية الجمل ٣ / ٥٩٩ .
[٣] البحر المحيط لأبي حيان ٩ / ١٩٨ .
[٤] تفسير أبي السعود ٤ / ٦١٢ .

الخاتمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه وسلم.

وبعد ،،،

فبعد المعايشة لآيات البحث والتملي فيها والرجوع إلى أقوال المفسرين والبلاغيين وغيرهم خرجت الدراسة بالنتائج الآتية :

أولاً : أن هذا الموضوع قد أخذ حيزا كبيراً في كتاب الله تعالى نظراً لأهميته، إذ جميع الأنبياء والمرسلين جاءوا لدعوة الناس إلى توحيد الله وعبادته وترك عبادة غيره تعالى ، فكان أن عرض القرآن لهذه الآلهة المدعاة وأكثر من وصفها ، وبين عجزها وضعفها ، وأكثر من تشبيهها بما لا ينفع ولا يفيد ، ولذا فإني أرى أن هذه الدراسة ما هي إلا تمهيد وتوطئة لهذا الموضوع المتفرع الجنبات ، المتعدد الزوايا يستحق الدراسة المتأنية ، والنظر البصير والإحاطة بجزئياته ، والإلمام بتفاصيله.

ثانيا : كثرت وتعددت الآلهة المدعاة التي كانت تعبد من دون الله واختلط فيها غير العاقل كالأصنام والأوثان والكواكب والعجل وغير ذلك ، والعاقل كعبادة الجن وعيسى عليه السلام وأمه البتول وعزير ، ومن لا يوصف بأيهما كالملائكة وقد نص البحث عليها بما يقترب من الإشارة والإيجاز حتى لا نخرج عن الدراسة البلاغية المقصودة من هذه الدراسة [١].

ثالثا : وردت لفظة الأصنام . في القرآن الكريم خمس مرات حللتها وذكرت بعض دلالاتها وإيحاءاتها على ضعف وعجز الآلهة المدعاة وسفه عابديها[٢].

---

[١] انظر البحث ص

[٢] انظر البحث ص

رابعاً : وردت لفظة " الأوثان " في القرآن الكريم ثلاث مرات ، حللتها ، وذكرت بعض دلالات وفحاوى الأساليب على ضعف وعجز هذه الأوثان [١].

خامساً : كما ورد لفظ " التماثيل " مرتين ، مرة قصد بها الأصنام والأوثان ، ومرة قصد بها نعمة امتن الله بها على سيدنا سليمان عليه السلام [٢].

سادسا : كما ورد لفظ " إله " أو " آلهة " مقصوداً به الآلهة المدعاة ، ولكثرة المواطن تعذر الإحصاء وقد حاولت أن أجد فروقا أسلوبية في الاستعمال القرآني بين لفظة " إله " عندما تطلق عليه تعالى وبينها عندما تطلق على الإله المُدَّعَي من دون الله تعالى [٣].

سابعاً : استعمل ضمير غير العاقل مع الأصنام في كثير من مواطن القرآن الكريم ، وقد ذكر العلماء لذلك أسراراً وأغراضاً ذكرتها وأضفت ما فتح الله عليَّ به [٤].

ثامناً : ضُربت للآلهة المدعاة كثير من الأمثلة ، ومُثِّلت بالأشياء الضعيفة الحقيرة حتى يظهر ضعفها وعجزها من ناحية ، وحتى يرعوى الناس عن عبادتها ، ويتركوا التعلق بها ، وقد تشابهت كثير من هذه الأمثلة والتشبيهات في مضمونها ونتيجتها ، وذلك لأن الهدف واحد ، والقصد هو بيان وإظهار حالة هذه الآلهة من العجز المذري والضعف اللامتناهي [٥].

---

[١] انظر البحث ص
[٢] انظر البحث ص
[٣] انظر البحث ص
[٤] انظر البحث ص
[٥] انظر البحث ص

فهرس المصادر والمراجع

١ - ابن كثير دار المنار ــ من دون .

٢ - الإتقان في علوم القرآن للسيوطي تحقيق أحمد بن علي ــ دار الحديث ــ القاهرة ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م .

٣ - أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني تعليق محمود محمد شاكر مطبعة المدني بالقاهرة ط أولى ١٤١٢هـ / ١٩٩١م .

٤ - أسرار البيان للدكتور على محمد حسن العماري ـــ الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .

٥ - إعراب القرآن الكريم وبيانه لمحي الدين الدرويش ط التاسعة ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م دار الإرشاد للشئون الجامعية ــ حمص ــ سوريه .

٦ - الإفصاح عما تضمنه الإيضاح من مباحث البيان للأستاذ أحمد محمد الحجار ــ دار الاتحاد العربي للطباعة ــ من دون .

٧ - البحر المحيط لأبى حيان بعناية : الشيخ زهير جعيد دار الفكر ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م .

٨ - بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح لعبدالمتعال الصعيدي ، مكتبة الآداب ، ط أولى ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م .

٩ - التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ــ دار سحنون للنشر والتوزيع ــ تونس ١٩٩٧م .

١٠ - التصوير الفني للقرآن لسيد قطب الطبعة الشرعية ١٧ ــ دار الشروق .

١١ - تفسير أبي السعود ت عبد القادر أحمد عطا ــ مكتبة الرياض الحديثة ــ من دون .

١٢ - تفسير البيضاوي بهامش حاشية الشيخ زاده ـــ المكتبة الإسلامية ــ تركيا ــ من دون .
١٣ - تفسير البيضاوي على حاشية الشهاب الخفاجي ضبط الشيخ عبد الرزاق غالب المهدي دار الكتب العلمية ــ بيروت ط أولى ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م .
١٤ - تفسير القرطبي " الجامع لأحكام القرآن ... " لأبي عبداللاه محمد بن أحمد الأنصاري تحقيق إبراهيم محمد الجمل ، دار القلم للتراث ، من دون .
١٥ - جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ت : هاني الحاج وآخرون، المكتبة التوفيقة ٢٠٠٤م .
١٦ - حاشية الجمل ــ الحلبي ــ من دون .
١٧ - حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي ضبط الشيخ / عبد الرزاق المهدي ــ دار الكتب العلمية لبنان ـــ ط أولى ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م .
١٨ - حاشية الشيخ زاده على تفسير البيضاوي ـــ المكتبة الإسلامية ــ تركيا ــ من دون .
١٩ - خصائص التشبيه في سورة البقرة للدكتور إبراهيم على حسن داود ط أولى ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م مطبعة الأمانة .
٢٠ - الدر المصون للسمين الحلبي تحقيق الشيخ على محمد معوض والشيخ أحمد عبد الموجود والدكتور حاد مخلوف ، والدكتور زكريا عبد المجيد النوتي ــ قدم له الدكتور / أحمد محمد صبره دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط أولى ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م .
٢١ - دراسات لأسلوب القرآن الكريم للدكتور محمد عبد الخالق عضيمه ــ دار الحديث ــ القاهرة ط سنة١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

٢٢ - ديوان زهير بن أبى سلمى ــ دار صادر بيروت ــ من دون .
٢٣ - روح المعاني للألوسي ط أولى ١٤١٨هـــ / ١٩٩٧م ، دار الغد العربي.
٢٤ - الريح والرياح في القرآن الكريم وفي كــلام العــرب بحــث للأستاذ الدكتور / على محمد حسن العماري هدية مجلة الأزهر شوال ١٤١٧هـ.
٢٥ - شروح التلخيص ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ بدون .
٢٦ - عز الدين بن عبد السلام وجهوده في البحث البلاغي للدكتور / عبد الحميد أحمد محمد على ط أولى ١٤٠٤هـــ / ١٩٨٤م مطبعة السعادة.
٢٧ - في ظلال القرآن للشيخ سيد قطــب ط الخامســة والثلاثــون ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م دار الشروق .
٢٨ - القرآن إعجازه وبلاغته للدكتور عبد القادر حسين ــ مطبعــة الأمانة ــ من دون .
٢٩ - كتاب الأصنام للكلبي ت : الأستاذ أحمد زكــي باشــا نســخة مصورة عن طبعة دار الكتب سنة ١٣٤٣هـــ / ١٩٢٤م ط٤ سنة ١٤٢١هـ مطبعة دار الكتب المصرية .
٣٠ - الكتاب لسيبويه تحقيق وشرح عبد السلام محمد هــارون ط أولى ــ دار الجيل ــ بيروت ــ من دون .
٣١ - الكشاف للزمخشري ــ دار الفكر ــ من دون .
٣٢ - لسان العرب لابن منظور ــ ط دار المعارف ــ من دون .
٣٣ - مباحث علم البيان في حاشية الجمل على تفسير جلال الــدين السيوطي، رسالة ماجستير للباحث ــ مخطــوط بكليــة اللغــة العربية بالقاهرة ١٩٨٩م.

٣٤ - مجاز القرآن لأبى عبيده علق عليه الدكتور / محمد فؤاد سزكين ــ مكتبة الخانجي بالقاهرة .
٣٥ - المحرر الوجيز لابن عطية تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد دار الكتب العلمية ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م .
٣٦ - معاني القرآن وإعرابه للزجاج تحقيق عبد الجليل عبده شلبي خرج أحاديثه الأستاذ / على جمال الدين محمد ــ دار الحديث القاهرة ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م .
٣٧ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقي ط ثانية ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م دار الحديث ــ القاهرة .
٣٨ - مفاتيح الغيب للفخر الرازي ، ط أولى ١٤١٣هـ/١٩٩٣م دار الغد العربي .
٣٩ - المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني مراجعة : وائل أحمد عبد الرحمن ــ المكتبة التوفيقية ــ من دون .
٤٠ - نداء غير العاقل في القرآن الكريم للباحث ط أولى مطبعة الأمانة ١٤١٧هـ/١٩٩٧م .
٤١ - النشر في القراءات العشر لابن الجزري قدم له على محمد الضباع . خرج آياته الشيخ زكريا عميرات ط أولى ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م دار الكتب العلمية ــ بيروت .
٤٢ - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام البقاعي تخريج عبد الرزاق غالب المهدي ط ثالثة ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت .